المعالجة الفنية للتاريخ

محمد عادل عرب

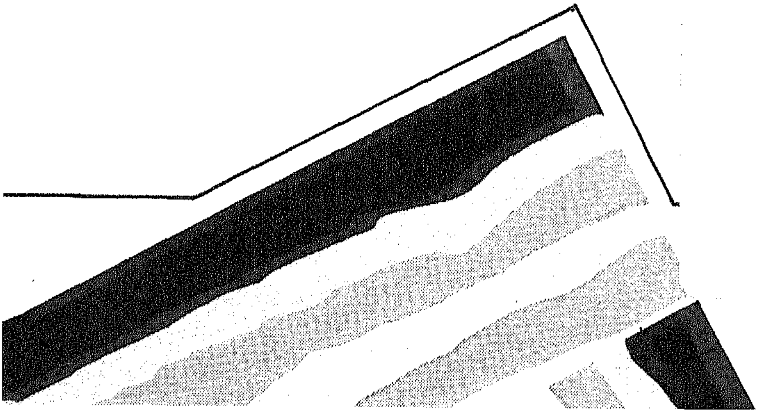

* المعالجة الفنية للتاريخ في مدارات الشرق
* محمد عادل عرب
* جميع الحقوق محفوظة
* الطبعة الأولى 1994
* الناشر :
دار الحوار للنشر والتوزيع
اللاذقية ص . ب : 1918 ـ هاتف 222339

محمد عادل عرب

المعالجة الفنية للتاريخ

مقدّمة

في تقديرنا أن العوامل التالية ـ على الأقل ـ كانت فاعلة أو خلفية لكتابة نبيل سليمان روايته المعنية هنا : مدارت الشرق (*)

1 ـ بروز أزمة حركة التحرر الوطني العربية بشكل جليّ . خاصة بعد الاجتياح الصهيوني للبنان عام 1982 ، وإخفاق فصائلها المتنوعة كافة ، في تحقيق كثير من الشعارات التي طرحتها .

2 ـ نشاط حركة البحث في التراث العربي الإسلامي استجابة لمتطلبات الراهن العربي المأزوم لمعرفة أسباب الأزمة والبحث عن طرائق الخروج منها واجتيازها .

3 ـ صدور عدد من المراجع والمصادر والمذكرات والأبحاث والوثائق التاريخية . . التي ألقت أضواء جديدة على التاريخ العربي بعامة وعلى مرحلة النهضة والتنوير .

4 ـ ظهور « البيروسترويكا » وتألقها واكتسابها أنصاراً عديدين من المثقفين العرب الذين رأوا فيها دعوة جديّة للتعمق في التربة الوطنية والقومية والدينية .

5 ـ صدور عدد من الروايات العالمية والعربية ذات السمات التاريخية ورواجها . . مثل « مئة عام من العزلة » و « الجنرال في متاهته الأخيرة » لماركيز ، و « أطفال منتصف الليل » و « العار » لسلمان رشدي ، و « الحرافيش » و « مقتل الزعيم » لنجيب محفوظ ، وثلاثية حنا مينا « حكاية بحار » ، و « خطط الغيطاني » لجمال الغيطاني ، و « اللجنة » و « بيروت بيروت » لصنع الله ابراهيم ، و « وليمة الأعشاب البحر » لحيدر حيدر ، و « الوباء » لهاني الراهب ، و « رياح الشمال » لنهاد سيريس ، وأخيراً خماسية « مدن الملح » لعبد الرحمن منيف . .

(*) سليمان ، نبيل ، 1990 ـ مدارات الشرق . صدر منها جزآن ، ط1 ، دار الحوار ـ اللاذقية . الجزء الأول : الأشرعة ، في 480 صفحة . الثاني ، بنات نعش ، في 579 صفحة ، من القطع الكبير . وقد صدر بعد إعداد هذه الدراسة الجزء الثالث بعنوان التيجان 680 صفحة ، والجزء الرابع بعنوان الشقائق 624 صفحة . إن ما تعنيه هنا كلمة رواية حين تتصل بمدارات الشرق هو الجزءان الأول والثاني فقط .

شكلت هذه الظاهرة الروائية العالمية والعربية تحدياً روائياً شاملاً للروائيين حين واجه الروائي العربي نفسه بما عناه السؤال التالي : ماذا سأكتب بعد هذا ؟ ماذا سأكتب بعد « مدن الملح » ؟

هذه العوامل مجتمعة بعامة ،والتحدي الروائي بخاصة ،أثرت في الذات الإبداعية « لنبيل سليمان » صاحب التجربة الحياتية الغنية ، والتجربة الفنية في الإبداع الروائي ونقده ، . . فكتب رواية « مدارات الشرق » .

* * *

يشمل زمان الرواية المرحله التاريخية الممتدة من عام 1918 إلى عام 1930 تقريباً : الجزء الأول : « الأشرعة » يغطي مرحلة الحكومة الفيصلية من 1918 إلى 1920 . الجزء الثاني : « بنات نعش » يغطي المرحلة التالية لمعركة ميسلون حتى انتهاء الثورة السورية الكبرى وبدء الانتقال في النضال الوطني إلى الشكل السياسي السلمي .

أما الزمن الروائي فإنه يرتدّ أحياناً إلى حوالي خمسين عاماً استناداً إلى تصوير طفولة « الحاج التكلي » عندما سرق فسيلة الحور وغرزها في « الحرزة »[1] دلالة على أصالته الفلاحية العريقة وحبّه للأرض والزراعة .

يسير الزمن في الرواية إلى الأمام بصفة عامة من خلال الحدث الروائي المتصاعد في فصول الجزأين ، ومن خلال تصوير الشخصيات الفنية التي يستقل عدد منها ببعض الفصول المتتالية أو المتفرقة ، مما جعل لكل شخصية زمناً جزئياً خاصاً بها يكمل زمن الرواية ، ويتناهى إليه ، وإنْ كان قد ارتدّ قليلاً إلى وراء نسبة إلى زمن نهاية الفصل السابق عليه .

هذا ولا يمكن اعتبار الزمن الأسطوري الذي وظفه الكاتب فنياً في الرواية داخلاً في زمنها باعتباره زماناً مجرداً ذا قيمة دلالية على الشرق ومداراته الروحية والتاريخية الموغلة في القدم قدم وجود الإنسان في هذه المنطقة من المعمورة ، بغض النظر عن استمرار حضور ظلاله عبر الفراغ الروائي .

(1) انظر ـ الأشرعة . ص : 69 .

كما لا يعتبر الحديث عن حملة « ابراهيم باشا » قبل عقود على بلاد الشام داخلاً في الزمن الروائي ، لأن الكاتب أراد الإشارة التاريخية إلى التداخل « الديموغرافي » المتنوع في إطار القبائل البدوية التي استوطنت أو تكاد : مثل قبيلة « الهنادي » .

* * *

تعكس رواية « مدارات الشرق » الواقع التاريخي الشامل المحدد بزمان الرواية ، لبلاد الشام بعامة ولسورية بخاصة .

وقد اعتمد الروائي اعتماداً رئيسياً على جملة من المعطيات التاريخية المتنوعة التي عالجها فنياً ، والتي أكسبت الرواية خاصتها التاريخية المميزة . ومن الصعوبة بمكان تتبع هذه المعطيات جميعها ضمن هذا البحث ، لذلك يتناول الدارس عناصر هامة منها : الأحداث التاريخية ، والشخصيات الفنية ،والمصادر التاريخية ، والوثائق الأخرى .

ونظراً لطبيعة البنية الفنية المدهشة لوحدة هذه العناصر العضوية من جهة ولطول الرواية(*) الذي ناف على الألف صفحة من جهة ثانية ، فإنّ الدراسة الفردية لكل عنصر من عناصر المعطيات التاريخية ، على حدة ، غاية في الصعوبة ،ومراهنة على دقّة البحث والتحليل والاستنتاج .

كما أن التناول النقدي العام لها ـ وإنْ كان يوصل إلى استنتاجات صحيحة ـ يُفقد الباحث لا محالة إمكانية الكشف عن كثير من جماليات الجزئيات الإبداعية المنتشرة في كل صفحة من صفحات الرواية الأمر الذي قد يؤدي إلى ضياع خصوصية هذه الرواية بالذات وتميزها ، وتبيان الجهد الروائي الإبداعي الغزير الذي جسدته فنياً .

إنّ الانسجام مع المنهج ،ومع ضرورة التناول النقدي لكيفية المعالجة الفنية للتاريخ ، في هذه الرواية ، في جزئياتها وكليتها ،يفرض تناولاً نقدياً فردياً لبعض العناصر الهامة من المعطيات التاريخية ، لكن هذا لا يتأتى إلاّ من خلال بعض التجاوزات التي تشترطها طبيعة البنية الروائية :

* مرة ثانية وأخيرة نؤكد أن المعني بكلمة الرواية كلما أحالت إلى مدارات الشرق إنما هو الجزء الأول والثاني فقط .

الأحداث التاريخية :

اختار الروائي أحداثاً تاريخية عديدة متنوعة ، رئيسية وثانوية ،وجعلها وسيلة فنية أساسية واقعية من جملة وسائله الفنية الواقعية الأخرى في الرواية . وأنشأ بينها وبين كثير من عناصر البنية الروائية علاقات إبداعيّة من خلال المعالجة الفنية ، حيث تميز حضورها الفني كماً ونوعاً في رواية « مدارات الشرق » عنه في الروايات السورية .

١ ـ الفنية في الاختيار :

يكاد لا يخلو فصل واحد من الفصول الاثنين والستين من حضور حادثة تاريخية ، تسكن فيه أو يسكن فيها أو يتساكنان ،توضحه أو يوضحها أو يتواضحان ،توشيه أو يوشيها أو يتواشيان .

وعلى الرغم من أن الروائي قد غطى الرواية بأحداث المرحلة التاريخية (المحددة بزمان الرواية) بكثافة تملأ فكر القارىء وذائقته الجمالية ، نتيجة تأمله الفكري وذوقه الجمالي المشروطين عليه من خلال صياغة الإبداع بين الفن الروائي وبين الأحداث التاريخية ، فقد بقي الفن الروائي هو « العام » الذي يتملك الرواية ، وبقيت الأحداث التاريخية هي « الخاص » الحقيقي ، الفعلي ، المنسجم مع « العام » والمعطي له خاصته التاريخية المميزة .

اختار الروائي الحوادث التاريخية الرئيسية مثل : رحيل الأتراك ، أو دخول الجيش العربي إلى دمشق ، أو تنصيب الملك فيصل ، أو احتلال الفرنسيين لمناطق في الساحل السوري ، أو المؤتمر الوطني السوري ، أو احتلال الفرنسيين دمشق ، أو سقوط حكومة الملك أو الثورات السورية ، أو قصف دمشق ، أو نشوء المجموعات الاشتراكية ، أو تشكيل حزب الشعب اللبناني ، أو تشكيل حزب الشعب السوري .

والتقط الروائي أحداثاً تاريخية ثانوية منسية عالجها فنياً فغدت في الرواية أحداثاً تاريخية داخلة في بنية الحدث الروائي والشخصيات الفنية مثل : تنصيب الأمير الجزائري ليوم واحد على عرش دمشق[1] ، أو وداع الوالي التركي[2] أو محاولة الشركة الصهيونية ـ الفرنسية شراء غوطة دمشق .[3] .

كما اختار الروائي بعض الشخصيات التاريخية الرسمية مثل : السلطان « عبد الحميد » أو جمال باشا ، أو لورانس ، أو الكولونيل كيش . وأهمل بعض الشخصيات التاريخية الرسمية مثل : الجنرال « اللنبي » او « غورو » ، أو « علاء الدين الدروبي » ، أو « عبد الرحمن شهبندر أو « سلطان باشا الأطرش » ، أو « ساراي » . .

ب ـ المعالجة الفنية للأحداث التاريخية :

نظراً لكثافة الأحداث التاريخية الموظفة في الرواية لجأت إلى دراسة بعض منها :

أولاً ـ الحرب العالمية الأولى وهزيمة الأتراك :

جعل الروائي حدث الحرب العالمية الأولى ونتائجها (هزيمة الأتراك وانتصار الحلفاء ،ودخول الجيش العربي بقيادة الأمير فيصل دمشق ، ثم دخول الجيش الانكليزي إليها ، واحتلال الفرنسيين لمناطق من الساحل السوري . .) نقطة انطلاق تاريخية رئيسية بدأ منها « زمان الرواية » ، وأخرج من حدثها شخصياتِه الفنية الرئيسية الخمس حين جمعها في « الجيش الميمم شمالاً . . حيث كانت أفواج الفارين والأسرى من جيوش السلطان تقاطر ،كذلك المتطوعين »[4] .

(1) انظر : الأشرعة . ص . 107 .

(2) انظر : الأشرعة . ص : 117 .

(3) انظر : الأشرعة . ص : 96 ـ 97 .

(4) الأشرعة . ص : 8

وصوّر الروائي أثر هذا الحدث التاريخي على مصير كثير من الشخصيات الفنية ووظفه فنياً عدة مرات في مواضيع ودلالات متنوعة :

ورد ذكر رحيل الأتراك أول مرة في الصفحة الأولى من الرواية في رابع فقره ضمن العرض التمهيدي الرئيس للحدث الروائي : في سياق الخطاب المشبع بجمال « قاسيون » : « قريباً من السماء بدا قاسيون قلقاً عليها » ،[1] ، ويشوق مدينة دمشق إلى الحرية التي غابت عنها بضع مئات من السنين : « كانت تحاول أن تتمطى لهفى إلى الشمس التي أشرقت لتوها ، فأضاءت الجبل »[2] . ودمشق من أقدم مدن الدنيا ، ملأى بأساطير الخليقة : « بين يدي قاسيون انفلش الحقل الذي قيل إنّ قابيل قد قتل فيه هابيل »[3] حيث : تململ الحجر الذي هشم الشقيق به رأس شقيقه »[4]، إنها « شامة للدنيا[5] » ذات تاريخ واقعي آسر : « يملؤها الصوت المؤمن أو الكافر ، الزارع أو التاجر ، العابر أو المترحل أو المقيم ، المخرّب أو المعمّر ، المستبد أو المحاور ، العاشق أو النائح ، والزمن يحفر بصمته ويمضي ، يعلن اليوم ، أو أمس ، رحيل من خلفوها خرابة ، تفوح برائحة الجثث التي قضت جائعة ، أو حبيسة ، أو روائح الذين ملأوا الأفاق بمزق أعضائهم ووسخهم وعنائهم وبوحهم[6] » .

في سياق هذه الكثافة الفنية في تصوير جمال الطبيعة وسحر الأساطير وبهاء « دمشق » وأسر تاريخها يورد الروائي ذكر رحيل الأتراك على صورة تعميم فني أولي ، منسجم مع السياق الجميل الشامل ، منهيا به العرض التمهيدي : « مثل من سبق رحل الأتراك اذن ، تلاحقهم أصوات مبهمة ، فيها ما كانت تتوارثه الحنايا ، ومنها ما يرطن ، فمنذ عهد سحيق لم تعرف الشام نصراً على نفسها أو على غيرها ، كما لم يكن فيها يوماً للانكليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الايطالية مثل هذا الحضور » . [7]ثم شرع الروائي يعرض الحدث الروائي .

(1 ، 2 ، 3) ـ الأشرعة . ص : 7 .
(4 ، 5 ، 6) ـ الأشرعة . ص : 7 .
(7) الأشرعة . ص : 7 ـ 8 .

وجمَّع حدثُ الحرب الشخصيات الفنية الخمس : (فياض العقدة ، واسماعيل معلا ، وعزيز اللباد ، وراغب الناصح ، وياسين الحلو) الذين : « لم يكن أحدهم أوفر سعادة ولا أكثر اعتزازاً ، فما همَّ الجميع أنهم قد نجوا من الجحيم التركي »[1] وربطها - عضوياً - بعلاقات فنية مع شخصيات أخرى مثل : « حاتم أبو راسين » و « ابن الأكاشي » و « الباشا شكيم » و « سليم أفندي البسمة » و « هولو » . . هذه العلاقات العضوية والفنية ستتطور وستتغير على طول المسار المتصاعد لحركة الحدث الروائي : « كما جعل القتال كلا منهم بالغ الضرورة للآخر ، خاصة أنهم باتوا يتناقصون ، شوطاً بعد شوط[2] » ، وقارب بين مشاعرهم والمزاج الشعبي والوطني العام : « كانت الانتصارات المتتالية تسكرهم ، تقرب الدار وتؤكد الشماتة بالأتراك[3] » .

وربط الروائي بين حدث الحرب وبين الشخصيات الفنية حين جعل الحرب ذات تأثير بالغ في بنية كل منها وفي مواقفها ، وفي مصيرها الذاتي المتفرد إذْ :

جعل الروائي حدث الحرب سببها في نشوب الصراع بين « عزيز اللباد » وبين « بيت بشارة » في قرية « قبية » و « صافيتا » : حين استولى « بيت بشارة » على أرض والد عزيز اللباد بحجة تخليص « عزيز » من الجندية ، لكنه سِيق إليها ، وعانى ما عاناه[4] .

وجعل الروائي حدث الحرب سبباً في هيمنة « ابن البزاز » و « الشيخ منصور » على أراضي « كفرلالا » ، ومنها أرض « اسماعيل معلا » ، وفي موت « عاطف » أثناء غياب أبيه في الجندية ، ولما عاد وجد عاطف ميتاً : « فأبو عاطف يتخلع منه ، يتركه نقمة حبيسة ، كانت تعرف ذات يوم هدفاً وحيداً يجمع ابن البزاز إلى المختار ، ثم صار يجمع الأتراك ، أما الآن فماذا بوسعه غير أن يطلق صوته داوياً ملتاعاً : - يارب »[5] .

(1) - الأشرعة . ص : 8 .
(2) - الأشرعة . ص : 8 - 9 .
(3) - الأشرعة . ص 8 .
(4) - الأشرعة . ص : 38
(5) - الأشرعة . ص : 29 .

وجعل الروائي الأتراك والوالي والسلطان سبباً في تهجير أسرة « ياسين الحلو » من « تلدف » في شرقي حلب ، إلى « الزنبقلي » في منطقة « حمص » حين قَيَّدَ أهل « تلدف » « الملتزم » التركي و « وضعوه في تابوت الضيعة ،حملوه على أكتافهم وساروا به نحو المقبرة مكبرين . . وفي المقبرة كشف والد ياسين التابوت وفك وثائق الملتزم ،وصاح : ـ إياك أن تعود . لا تجعلنا ندفنك وأنت حي »[1] ، و : « الآغا أمر بالرحيل ،والوالي سوف يأمر غداً والسلطان بعد غد . وشرّ الآغا أهون من شر الوالي ومن شر السلطان »[2] .

كما جعلهم سبباً في تجنيد « ياسين الحلو » ذاته ،وفي ابتعاده عن حبيبته « هند »[3]

وجعل الروائي **الموقف من الأتراك ورحيلهم يحدد السمات الوطنية والقومية والطبقية والفكرية لكثير من الشخصيات الفنية** : « ابن الأكاشي » الاقطاعي ـ التاجر ، يحرض فلاحيه ضد الأتراك للخلاص من حكمهم ،وهو يدعم الحكومة العربية في دمشق ، ويسخر من « أمير الحج » هامساً في أذن الملازم « تحسين الحلبي » : « ـ ما الذي يجيء به إلى هنا ؟ مكانه في استانبول إذا بقي له مكان »[4] وبذلك تتحدد بعض ملامحه الوطنية والقومية كنموذج للاقطاعيين السوريين المتنورين ،بينما وقف « أمير الحج » مدافعاً عن الأتراك وعن السلطان العثماني والخلافة ، متهماً الآخرين بالتخريب والهدم وعدم القدرة على البناء ، والغفلة أمام مخططات الانكليز والفرنسيين لاقتسام البلاد : « هو لا يرضى فكاكاً في العرش ،لا فكاك في الخلافة والتاج »[5] ، إنه نموذج للاقطاعيين ذوي الاتجاه الديني ، وجعل الروائي موته دلالة على سقوط هذه الرموز .

أما « الحاج أبو عمر التكلي » الذي ضُرِب فلقة من الجندرمة الأتراك حين كان

(1) ـ الأشرعة . ص : 32 .
(2) ـ الأشرعة . ص : 33 .
(3) ـ الأشرعة . ص : 31 .
(4) ـ ـ الأشرعة . ص : 53 .
(5) ـ الأشرعة ص : 95 .

طفلاً وسرق فسيلة الحور وغرسها في البستان ،والذي تزوج امرأة من المريجانة » حين كانت الأعراس تملأ الدنيا ابتهاجاً بجلوس السلطان على عرش الاستانة »[1]·فقد حرّم على نفسه زيارة الشام ما دام الأتراك فيها : « بعيد ذلك اليوم الذي امتلأت فيه المرجة بالمشانق »[2] ، وها هم اليوم : « يرحلون شبراً شبراً ،رجلاً رجلاً ،كلما غابت شمس وأشرقت شمس ، طوال هذا الصيف ، بل طوال هذه السنة ،وكان الحاج يحس ذلك ، يتلمسه مثل ظله على جذع الحورة في الليلة المقمرة »[3] وبذلك تتحد ملامحه الوطنية والقومية. إنه نموذج للفلاحين الأصليين الطيبين الذين يكرهون الظلم من أي ظالم .

والموقف من الأتراك أحد المميزات بين « هولو » وبين أخيه « عمر » ولدي « الحاج التكلي » : فـ « هولو » يكره الأتراك الذين خرّبوا البلاد وقطعوا جذوع أشجارها لإطعام قطاراتهم التي تذهب جنوباً وشمالاً وشرقاً محملة بالجنود والمحاصيل دون طائل فائدة ، وهو يعمل على اخراجهم ،أما « عمر » فهو غير مبال بالأمر : « لكن عمر أخاه مستفزاً : ـ وفرحتك بوصول الانكليز والحجازيين ؟ هل الشام أرضهم ؟ رد « هولو » : « ـ هل تقارن الحجاز باستانبول »[4] .

كما أن وضوح الموقف من الأتراك أحد المميزات بين شخصية « سليم أفندي البسمة » وبين شخصية « الباشا شكيم » ،على الرغم من أنهما عملا معاً من أجل الاستقلال : علاقة « الباشا شكيم » : « ذي اليد الطولى في كل مكان ،هو وأسرته ،من قصر السلطان إلى الشركات الألمانية إلى الغوطة »[5] غامضة : « هل هو مع السلطان ؟ إنه لا يبدي أدنى حماسة لما يدعو إليه أتباع السلطان من جامعة إسلامية أو حزب محمّدي . هل هو مع الاستقلال عن الأتراك ؟ حسناً ،ولكن أين هو مما يروّج مِن قول

(1) ـ الأشرعة . ص : 59 .

(2) ـ الأشرعة . ص : 68 .

(3) ـ الأشرعة . ص : 63 .

(4) ـ الأشرعة . ص : 71 .

(5) ـ الأشرعة . ص : 93 .

عن الانكليز والفرنسيين ، ومن بعد ، الثائرين في الحجاز ؟ »[1] . أما سليم فكان واضحاً يرى : « الاستقلال أولاً ، ولكل حادث حديث من بعد »[3] . . **وبذلك تظهر بعض السمات الفردية لكل من الشخصيتين الفنيتين كنموذجين لطبقة الاقطاع والتجار المتنورين أيضاً .**

والعمّ « حاتم أبو راسين » الذي ذَبح الدركُ الأتراك زوجتَه وحبيبته « شمّا »[3] ولم ينجِه منهم سوى الكشف عن قضيبه والتأكيد على طهوره[4] ، يكره الأتراك بعد أن رأى بأمّ عينه فظائعَهم بالأرمن »[5] ، وبعد أن تسببوا في تشريده سنين طويلة : « عُمراً بطوله ظل يهرب ،من محطة إلى محطة ، من مدينة إلى مدينة ،ملوياً عينيه عن أية امرأة في العالم ، مقبلاً على عمله وحسب ، لا يوفر جهداً كي يعين أيّ أرمني أو أرمنية يصادف ،وتلك كانت خطوته الأولى من أجل أن يرحل الأتراك عن الشام »[6] . ثم « لم يعد عنق « شما » وحده يدفعه إلى الأمام . . . ربّما كان المنعطف الجديد الحاسم في وعيه حين شارك في إضراب عمّال السكك الحديدية ، سنة الانقلاب الأول في استانبول »[7] بعد ذلك يعمل « حاتم أبو راسين » في جمعية سريّة سياسية تهدف إلى الاستقلال ، ويحرض على فرار الجنود ، ويساعد الفارين[8] ، ويدعوهم للالتحاق بجيش الثورة العربية ،ثم يفر هو أيضاً . **وبذلك تتحدد سماته الفردية والوطنية والطبقية كنموذج للطبقة العاملة السورية الناشئة .**

« هشام السّاجي » نموذج المثقفين السوريين آنذاك وقف يتفرج من بعيد : « حين

(1) الأشرعة . ص . 95 .

(2) - الأشرعة . ص . 95 .

(3) - الأشرعة . ص . 406 .

(4 - 5) - الأشرعة ص . 407 .

(6) الأشرعة ص : 408 .

(7) - الأشرعة . ص . 409 .

(8) - الأشرعة . ص : 10 - 11 .

ركب الوالي أخيراً »[1] وهو : « لا يكاد يميز الوجوه الغفيرة المتفرجة مثله ، أو المودِّعة ، أو الراحلة مع الوالي[2] » و : « منذ الظهيرة بدا منوما ، يسيِّره الاحساس الغامر بأنه يتوج في هاته الساعات شهادته الكبرى . فما دام الوالي ورهطه سيرحلون ، فهذا يعني أن الساعة قد أزفت أخيراً ، وأن المنعطف الذي طفق يرعاه منذ سنوات ، قبل الحرب ، وربما قبل الانقلاب الأول على السلطان قد تحدد أخيراً . ها هو الآن هشام الساجي ، الذي نشأ يفكر في أمور كبيرة وكثيرة ، يقف على التخم الفاصل بين عصرين ، أو الصراط المستقيم بين عهدين ، كما خطر له بجلال ، يرثي للذين يبكون أو يتحسرون على الإسلام والشام[3] » ثم بدأ بالاستعداد لاقتناص الفرصة الجديدة .

« الست زهرة » زوجة الباشا : « هي هي ، قبل الحرب ، قبل أن يغادر الوالي ورهطه محطة الحجاز ، وحين فجّر الأتراك مستودعات الذخيرة وهم يغادرون »[4] .

كانت ما تزال تصعد إلى السطح ، مثل سائر الناس تراقب ألسنة النيران وسحائب الدخان ، وهي تدرك ما أصاب زوجها « الباشا شكيم » حافِيّة ، تدفع من بعيد كما تحمي ، وخاصة في هذه الأيام التي ينعطف فيها الدرب بالشام أي منعطف ، فترتعد أركان الشام الراسخة في جبل قاسيون أكدت لزوجها أن كل شيء سيكون له »[5] . كذا يبدأ الروائي بتحديد السمات الفردية لشخصية الست زهرة .

أمّا « لميعة » أخت « الباشا شكيم » فإنها قد قطعت كل صلاتها بالسلطنة العثمانية وبالأتراك منذ زمن بعيد على الرغم من أنها قد درست في استنبول ، واختارت لندن والانكليز والمستر « بيجيت » ، تَصِل مع الجيش الانكليزي إلى دمشق[6] ، وتدفع أخاها للخروج من عزلته : « ـ ما فات الوقت ، لو أنك عجّلت مثل غيرك بين رحيل الأتراك

(1) الأشرعة . ص : 105 .

(2 ـ 3) الأشرعة . ص : 105 .

(4) ـ الأشرعة . ص : 111 .

(5) ـ الأشرعة . ص : 120 .

(6) الأشرعة . ص : 116 ـ 117 .

ووصول الانكليز ، ونصّبتَ نفسك : ربما كان استطاع بيجيت وغيره أن يثبّتوك »[1] .

ويحدّد الروائي السمات المشتركة ،والفردية لـ « رستم آغا » اقطاعي « الزنبقلي » و « ابن البزاز » اقطاعي « كفرلالا » و « عبود بك الرشدة » اقطاعي « سهل عكار » ،و « الدنادرة » اقطاعي منقطة « تلكلخ » ، و « بيت بشارة ،وابن الدباس » اقطاعيي « قبية ،وصافيتا » والأمير « دشاش » . . إنهم ، على اختلاف مناطقهم وعلى تنوّع شخصياتهم نموذج للاستبداد الشرقي الاقطاعي الظالم من خلال عمالتهم للأتراك ، ومراعاة مصالحهم الشخصية على حساب القضايا الوطنية .

لقد جعل الروائي رحيل الأتراك ذا تأثير شامل ،حتى في بعض الشخصيات التي ذكرت مرة واحدة في الرواية مثل « أبو مدحت الحكواتي » الذي بدّل خطاب حكاياته السابق بخطاب مباشر عن الحرية : « الفضل لله ولكم ، ليس أغلى من الحرية ، ولا أحلى »[2] فأعطى بذلك الحدث التاريخي دلالة شعبية واسعة .

وأورد الروائي حدث الحرب العالمية الأولى والموقف من الأتراك بأشكال متنوعة ، ومختلفة المستوى : رئيسية وثانوية منها مثلاً : المشانق التي نصبها جمال باشا في دمشق[3] ، أو فتوى الشنق[4] ، أو أعمال « جمال باشا » العديدة[5] ، أو قتل الأرمن وتشريدهم[6] ، أو تفجير مستودعات الذخيرة[7] ، أو رحيل الوالي[8] التركي ، أو ذكر ألقاب السلطان[9] ، أو من خلال ربط تلك الحرب بحدث تاريخي آخر مثل ثورة أكتوبر

(1) ـ الأشرعة . ص : 116 .

(2) ـ الأشرعة . ص : 13 .

(3) ـ انظر الأشرعة . ص : 69 .

(4) ـ انظر الأشرعة . ص : 72 .

(5) ـ انظر الأشرعة . ص : 79 ، 115 ، 131 .

(6) ـ انظر الأشرعة . ص : 406 ، 407 .

(7) ـ انظر الأشرعة . ص : 111

(8) ـ انظر الأشرعة . ص : 105 .

(9) ـ انظر الأشرعة . ص : 101 .

الاشتراكية[1] ، أو من خلال الحديث عن الثورة العربية والجيش العربي[2] ، أو ذكر الأمير الحجازي[3] ، أو الراية العربية[4] ، أو جواري السلطان وقصوره[5] . . وغير ذلك كثير .

وأدخل الروائي حدث الحرب العالمية الأولى والأتراك في كثير من عناصر البنية الروائية ، بالإضافة إلى بنية الشخصيات الفنية نرى الحدث التاريخي وارداً على لسان الراوي[6] ، وفي الحوار[7] ، وعبر التحليل النفسي لشخصية[8] من الشخصيات ، أو عبر الحديث الداخلي وسبر[9] أغوار النفس ، وفي مجرى الحدث[10] الروائي ، وفي صلب الزمن[11] الروائي ، وفي وصف الأماكن[12] ، والأعمال[13] ، والأفعال[14] ، والإنشاءات[15] . . وغير ذلك كثير .

(1) انظر الأشرعة . ص : 121 .
(2) انظر الأشرعة . ص : 95 .
(3) انظر الأشرعة . ص : 108 .
(4) انظر الأشرعة . ص : 111 .
(5) انظر الأشرعة . ص : 112 .
(6) انظر الأشرعة . ص : 7 ، 10 ، 19 ، 20 ، 32 ، 37 ، 68
(7) انظر الأشرعة . ص : 13 ، 26 ، 33 ، 53 ، 54 ، 62 ، 63 ، 72 .
(8) انظر الأشرعة . ص : 105 ، 112 ، 113 .
(9) انظر الأشرعة . ص : 59 ، 94 ، 95 ، 111 .
(10) انظر : الأشرعة . ص: 29 ، 105 ، 404 ، 406 .
(11) انظر : الأشرعة . ص : 65 ، 404 ، 408 .
(12) انظر الأشرعة . ص : 23 ، 28 ، 113 .
(13) انظر : الأشرعة . ص : 113 ، 114 ، 115 .
(14) انظر : الأشرعة . ص : 127 .
(15) انظر : الأشرعة . ص : 84 ، 125 ، 131 ، 130 .

ومن الملاحظ أن الروائي استخدم صياغة « رحيل الأتراك[1] » مرات عديدة للاشارة إلى جلاء الإستعمار العثماني ـ التركي عن سورية ،وفي هذه الصياغة دلالة على الروح الشعبية إذ، أن هذه الصياغة مأخوذة مباشرة من أفواه الناس ،وقد كانت مستخدمة آنذاك في مناطق عديدة في سورية .

ونتيجة لتنوع الشخصيات في تفردها وفي وصفها الاجتماعي ،ولتنوع المواضيع ، ولتنوع مراحل الحدث الروائي ،ولتنوع المصادر التاريخية . . فقد جاء الخطاب في الحدث التاريخي متنوعاً تنوعاً مدهشاً حقاً .

إن نشر الحدث التاريخي عبر مكوناته الرئيسة والثانوية ،وتصويرها فنياً من خلال عناصر البنية الروائية مكّن الرواية من أن تعكس فنياً فكرة سقوط السلطنة العثمانية والاستعمار التركي بحكم الضرورة التاريخية المتوغلة بشكل خفي في عالم رواية « مدارات الشرق » حيث لا يمكن للقارىء ـ رغم الصيغ المباشرة ـ أن يستنتجها إلا بعد الانتهاء من القراءة وجمع التصوير الفني لجزئيات الحدث التاريخي المُنبثّة خلال شبكة العلاقات الروائية .

وما ينطبق على القارىء في هذا المجال ينسحب بشكل أو بآخر على نمو المعرفة لدى الشخصيات الفنية عبر ممارساتها في الأقوال والأفعال . أي إحساساتها ومباشراتها الحياتية المتنوعة وإدراكاتها للتغييرات المعرفية الكيفية والنوعية نتيجة للممارسات الكمية . أي : من خلال التطور الموضوعي بغض النظر عن اتجاه هذا التطور في تحديد مصائر كل من الشخصيات الفنية .

وجعل الروائي الشخصيات الفنية تعيش الحدث التاريخي وتمارسه ـ بكل كيانها ـ بأشكال متنوعة ومختلفة ،وأحياناً متناقضة ،من خلال التخييل الفني الواقعي ، الأمر الذي أكسب الرواية سمة تاريخية ،وشد القارىء ليعيش الحدث التاريخي مع الشخصيات الفنية في عصرها ،يتعاطف معها ،ويفرد أشرعته حينما تفرد أشرعتها ، ليطير معها ويحط معها .

(1) أنظر : الأشرعة . ص : 7 ، 36 ، 87 ، 89 ، 501 ، 111 وكثير غيرها .

ثانياً ـ اتفاقية « سايكس ـ بيكو » و « وعد بلفور » و « الثورة العربية » و « عهد حكومة فيصل في دمشق » و « الاحتلال الفرنسي لسورية » :

تزامنت نتائج اتفاقية « سايكس بيكو » مع « وعد بلفور » ،ومراسلات « الحسين ـ مكماهون » و « الثورة العربية » ،و « عهد حكومة فيصل » في دمشق التي انتهت بعد معركة « ميسلون » واحتلال القوات الفرنسية لسورية ،تنفيذاً لاتفاقية « سايكس بيكو » و « سان ـ ريمون » . كما تزامن « وعد بلفور » و « الثورة العربية » ،وتزامنت بعض نتائجه مع « عهد حكومة فيصل » ، وسقوطها .

إن تزامن هذه الأحداث التاريخية ، وتقاطعات بعض نتائجها ، انعكس فنياً في رواية « مدارات الشرق » : في جزئيها ، بصورة يصعب فيها فصل هذه الأحداث بعضها عن بعض ، وتخليص كل منها على حدة ،ودراسته بشكل مستقل ،وتتبع طرائق معالجته الفنية وكيفياتها ، إلا إذا اتبع الباحث طريقة المؤرخ ،ومنهجه الذي قد يجنح بالبحث أثناء تحليل الجزئيات ، أو التركيب ، أو الاستنتاج ، إلى تظهير التاريخ على النص في هذه الرواية بالتحديد : لأن الروائي قد بنى علاقات فنية بين عناصر البنية الروائية وبين هذه الأحداث من خلال معالجات فنية واقعية تملك خاصة إبداعية وفق حاسوب الروائي الخاص والوحيد . وهي بعيدة ،بما فيه الكفاية ، عن طريقة المؤرخ ومنهجه ، وحساباته للخاص والعام .

لذلك لجأتُ إلى إتباع الطريقة القياسية آملاً أن تسعفني في هذا المجال : حيث أن الروائي عالج هذه الأحداث التاريخية فنياً بطرائق منها التالية :

1 ـ وزع الحدث التاريخي الواحد في فصول عديدة ، متتالية ومنفصلة ، في « الأشرعة » و « بنات نعش » .

2 ـ اختار من الحدث التاريخي جوانب رئيسية ،وجوانب ثانوية ، وجوانب مهمة أو ضائعة أو مخفية ، ووظف هذه الجوانب ، بغض النظر عن ترتيبها ،مع ما يتلاءم وبناء بعض عناصر البنية الروائية في سياق محدد تارة ،وسرب بفنية خفية بعض عناصر البنية الروائية وشدها إلى جانب من الحدث التاريخي ، تارة ثانية في سياق محدد آخر ،

أو قاطع الجانبين (التاريخ ، والفن) في سياق ثالث . . أي : انه أنشأ شبكة إبداعية بين عناصر البنية الروائية وبين جوانب الحدث التاريخي الواحد ، يصعب تحديد علاقاتها ووصفها بدقة .

3 ـ حذف أرقام التأريخ ،وحذف كثيراً من أسماء الشخصيات التاريخية الرسمية ،وشد الواقعة التاريخية التي اختارها من إحدى حلقاتها التي اختارها أيضاً ، إلى تكوين عالم الرواية دون أن تفقد الواقعة التاريخية مصداقية وقوعها وجدّيته وصرامته ،ودون أن يفقد عالم الرواية التخييلي استقلاليته عن الواقع التاريخي .

4 ـ كثّف الروائي توظيفات الأحداث التاريخية ، وداخلها ،وفاعلها في تكوين الفصل الواحد مرة ،وفي المقطع الواحد من الفصل مرة ثانية ،وفي الفقرة الواحدة مرة ثالثة ،من خلال السرد ، على لسان الراوي ، أو في الوصف ، أو في الحوار ، أو في « المونولوج » ، أو في بناء الشخصية الفنية ، أو في الخطاب الموحد للراوي وللحديث الذاتي ، . . وعبر الصيغ الخبرية والإنشائية ،وسياق الجدّ وسياق السخرية ، والفرح والحزن ،والتفاؤل ، واليأس ،والبوح ، والهمس ،والسرية ،والانفعال والهدوء ، والحل ،والترحال ،والقوة ، والضعف ،والخصوبة ،والعقم ،وفي الحال الوسطي بين هذه المعطيات . . وفي إطار الفقر والغنى والمستغَل ،والمستغِل ،والمستعمَر ،والمستعمِر والظالم ، والمظلوم ، والمرأة والرجل ،والخيانة ،والوطنية ،والأنانية ،والغيرية .

تضافر ذلك كله في إيقاع أسلوبي ذي تواترات متنوعة لكنها متآلفة (سيمفونيا) من بداية رحلة فرد الأشرعة ، أشرعة الواقع والحلم ،إلى أن ندبت بنات نعش أخاها . عابرة نهر الحياة في ممر من موازييك متعددة ألوانه وأطيافه ، متنوعة أشكاله ، فيه التفافات ، ومضائق ، وساحات ، وجيوب ،وأنفاق حارة ، وأنفاق رطبة ،ونوازل ، وصواعد .

5 ـ سخر الروائي توظيف الأحداث التاريخية فيما يهم القضية الوطنية (العامل الذاتي) بالدرجة الأولى ، وجسد ذلك عبر المعالجة الفنية ، في التنوع الوطني الاجتماعي وتناقضاته ،وأغضى عن كثير مما يهم مصالح الدول الاستعمارية التي فرضت تلك

الأحداث التاريخية وفق الواقع التاريخي الموضوعي للعلاقة القائمة جدلياً بين العامل الموضوعي (الظروف العالمية) وبين العامل الذاتي (الظروف المحلية) .

6 ـ سخر الروائي وعيه للتاريخ في توظيف اختياراته من الأحداث التاريخية المعالجة فنياً للكشف عن الواقع التاريخي الموضوعي للمجتمع السوري المحدد بزمان الرواية ، وبالزمن الروائي ، وعن قواه الاجتماعية المتنوعة المتحالفة والمتناقضة الواعية والعفوية بهدف إعادة النظر فيه : أي وعيه وعياً تاريخياً علمياً من خلال الإبداع الفني والوعي الجمالي لمعرفة تشكيلته الاجتماعية الشاملة لبنائه الفوقي وبنائه التحتي . ودور القوى الإنتاجية وعلاقات الإنتاج في تطويره أو تغييره ،وتحولاته الكمية إلى تحولات كيفية ونوعية .

وتكمن ، في هذا الجانب ،الغاية التربوية التي هدفت إلى ضرورة إعادة النظر في الحاضر ،الراهن المأزوم ، ووعيه وعياً علمياً لتجاوز أزمنه الحادة .

يورد الروائي اتفاقية « سايكس ـ بيكو » و « وعد بلفور »أول مرة في الرواية على صورة تعميم فني أولي في سياق الحديث على لسان الراوي ضمن العرض التمهيدي العام ، وصورة هذا التعميم الفني مستوحاة من نفوس الجنود والضباط العرب وأحاديثهم . ومن ظروف المعارك التي يخوضها الجيش العربي الميمم شمالاً ، جاءت الصورة في فقرة واحدة على الشكل التالي : « كانت الانتصارات المتتالية تسكرهم ،تقرّب الدار وتؤكد الشماتة بالأتراك إلا أن مصرع أحدهم كان ينغِص الفرحة ، يذكر بالموت المنسي للتوّ ، يحيل ما أمسكوه بأصابعهم إلى رمل يملص منها ، ويرتد سافعاً رموش العين . كذلك كان فرار أحدهم ، خاصة حين راح الجميع ، ضباطاً وجنوداً ، يتحدثون عن خيانة الانكليز واقتسامهم البلاد مع الفرنسيين واليهود وسرعان ما كانوا أيضاً ينسون »[1] .

احتوت هذه الفقرة مفهوم أربعة أحداث تاريخية « سايكس ـ بيكو » و « وعد بلفور » و « الثورة العربية » واتفاقية « الحسين ـ مكماهون » التي دلت عليها كلمة

(1) الأشرعة . ص : 10 .

« خيانة » . أي أن الروائي كثّف في إطار التصوير الفني المتنوع ،أحداث التاريخ . ولم يذكر الروائي أسماء الأحداث بل اكتفى بدلالة المفهوم عليها . وصور الروائي الواقع الموضوعي في فترة محددة وفي مكان محدد . ووظف الأحداث التاريخية في توجيه لوم خفي للجنود والضباط العرب الذين سرعان ما كانوا ينسون ذلك كله مخففاً اللوم عنهم بسبب من ظروف المعارك وضرورة متابعتها ،وميّز واحداً منهم بالفرار .

ثم أورد نبيل سليمان هذه الأحداث التاريخية مرة ثانية ، بعد صفحة واحدة من ورودها لأول مرة ، وضمن فقرةَ أطول من الفقرة الأولى ، حيث جاءت الفقرة في المقطع الثاني من الفصل الأول قاطعة الحوار الذي يدور بين الشخصيات الفنية الخمس حين بدأت حركتهم بالنزول من القشلة الحميدية إلى أسواق دمشق : « . . . ولعل فرار حمادي الحسون وهم في أواسط فلسطين ، هو ما جعلهم يتذكرون مراراً ، قبل أن يدخلوا الشام ، دكان سليم أفندي . كان عددهم قد تناقص كثيراً ، على الرغم من أن الشام كانت تقترب منهم ،وكان يدور بهم ما يسمعون عن سايكس وبيكو وبلفور وتروتسكي الذي فضح خيانة الانكليز والفرنسيين لهم . كانوا لسبب ما يزدادون التحاماً »[1] .

احتوى هذا المقبوس ذكر الروائي للوقائع التاريخية في بداية زمان تحريك الحدث في الرواية في تفصيل[2] مجمل له وتوسيع ، ومجيء الأحداث التاريخية في حالة من الزمن الروائي وجعلها خلفية واقعية متصلة بزمان الرواية ومنطلقاً لحدثها . وتمهيد الروائي للأحداث التاريخية برابط فني بين الفقرتين تجسد في تعيين اسم « حمادي الحسون » الجندي السوري الذي فر من أواسط فلسطين بعد أو وعى مغزى هذه الأحداث التاريخية ، الأمر الذي أدّى ، فيناً ، إلى بداية تمييز شخصيته ،وتفردها ،وتوضيح بعض معالمها ، وإلى كشف حركة الفوضى والاضطراب

(1) الأشرعة . ص : 11 ،خط التشديد للطالب .

(2) من التفصيل : نزول الجنود وذكر : اسم الميدان ،ودكان سليم أفندي ، وحاتم أبو راسين والحديث عن زمن الحرب : انظر : « الأشرعة » ص : 11 و 12 .

والتمردات التي حدثت في الجيش العربي نتيجة لكشف هذه الاتفاقيات ،وما رافقها من محاولات سياسية أخرى(*) .

واحتوى المقبوس ذكر الروائي لأسماء الشخصيات الرسمية (سايكس وبيكو وبلفور وتروتسكي) بدلاً عن ذكره للأحداث التاريخية التي ساهموا في صنعها . وإضافة الروائي لحدث تاريخي هام عندما ذكر اسم « تروتكسي »الذي فضح[1] اتفاقية « سايكس بيكو » . وقد تقصد الروائي ذلك لدلالات لم يفصح سياق النص عنها مباشرة ، لكنها معروفة لدى عدد واسع من القراء ،وبخاصة المهتمين منهم بتاريخ

(*) انظر موسى ، سليمان ، الحركة العربية / 1908 ـ 1924 ـ دار النهار ـ بيروت 1970 . ص : 376 و 394 / وانظر سعيد ، أمين ،لا تاريخ، الثورة العربية الكبرى ـ مجلد 1 ، جـ 1 ، عيسى البابي ـ مصر ص : 311 ـ 318 / حيث تمرد الضباط العرب والجنود عدة مرات ، ورفضوا القتال . وحيث أرسل « جمال باشا » الأمير « سعيد الجزائري » كوسيط للصلح بين الأتراك العرب ، بعد أن كشفت الاتفاقية ،وكيف راسل الأمير « فيصل » أباه ، وراسل « الشريف حسين » بريطانيا .

(1) انظر ـ الحركة العربية . ص : 376 / بادر الشيوعيون ، بعد ثورة تشرين الأول 1917 ، فنشروا يوم 8 تشرين الثاني 1917 نصوص عدد من الاتفاقات السرية التي كانت حكومة القيصر قد دخلت طرفاً فيها . وكانت اتفاقية « سايكس ـ بيكو » من بين الوثائق السرية التي تم نشرها : نشرت جريدة « ازفستيا » نص الاتفاقية في عددها الصادر يوم 21 تشرين الثاني 1917 . ولكنها لم تنشر في الصحف البريطانية إلا بعد حوالي الشهرين إذ نشرتها « المانشستر جارديان في 19 كانون الثاني 1918 . وفي أمريكا تأخر نشرها إلى ما بعد انتهاء الحرب إذ نشرتها « الإيفننج بوست » في 8 كانون الأول 1918 .
وانظر ـ بونداريفسكي ، 1975 ـ سياستان إزاء العالم العربي . تر : خيري الضامن ، ط1 ، دار التقدم ـ موسكو . ص : 122 ـ 123 / نشرت الاتفاقية بأمر من « لينين » .
اعتقد أن « نبيل سليمان » نسب فضح الاتفاقية إلى « تروتسكي » لأن الأخير كان مفوضاً للإعلام والخارجية في تلك المرحلة ، إنْ لم يكن « نبيل » قد عاد إلى مصدر آخر لم أحصل عليه .

البلشفية الاشتراكية ، وحزبها ،وعلاقة ذلك بالأحزاب الشيوعية العربية .

وتضمن المقبوس ، أيضاً ، عرض الروائي للأحداث التاريخية في الفقرتين ضمن سياق فني مشبع بالشعور الوطني ، ويحنين الجنود إلى دمشق ، فقد كانت الانتصارات المتتالية تسكرهم ،تقرب الديار ، بل كانت الشام تقترب منهم ، وكانوا لسبب ما يزدادون التحاماً .

عاد « نبيل سليمان » في الفصل الخامس من « الأشرعة » إلى جزئيات بعض المقدمات التاريخية التي أوصلت إلى « وعد بلفور »(*) . ومنها محاولات الصهيونية تثبيت أقدامها في المنطقة السورية ،من خلال تصوير المعركة التي خاضها « سليم أفندي البسمة » ضد « الشركة الكبيرة الغربية »[1] التي كانت خلف حمّى البيع والشراء في الغوطة : « إنها شركة يهودية بثوب فرنسي لا يهم إنْ تَسَمَّتْ باسم الدكتور فلان أو علان ، لا يهم إنْ رفعت يافطة زراعية أو غير زراعية . ما يهم أنها دفعت في استانبول(**) كي يسوغوا لها عملها ، ما يهم أنها تدفع أضعافاً مضاعفة لمن يبيع »[2] .

(*) أما « وعد بلفور » الموقع في 2 تشرين الثاني 1917 فقد نشرته الصحف البريطانية بهدف نسف اتفاقية « سايكس ـ بيكو » . انظر ـ سياستان إزاء العالم العربي . ص : 106 وقد نشرته جريدة « المقطم » المصرية يوم 9 تشرين الثاني 1917 ، أي بعد صدوره بستة أيام فقط . انظر ـ الثورة العربية الكبرى . مجلد1 ، جـ1 ، ص : 311 . وحالت السلطات البريطانية في مصر دون إرسال برقية احتجاج واحدة من العرب ضد التصريح . ورغم ذلك فقد جاء في برقية بعث بها السوريون إلى « بلفور » قولهم : إن فلسطين تعتبر بالنسبة لسورية « بمثابة القلب من الجسم » . ولكن لم ترسل السلطات البريطانية في مصر هذه البرقية إلى لندن . ووافقت فرنسا على « بلفور » في 14 شباط 1918 وإيطاليا في 9 أيار 1918 ، وأمريكا في 13 آب 1918 . انظر ـ الحركة العربية ، ص : 376 ـ 396 .

(1) انظر الأشرعة . ص : 96 .

(2) انظر الأشرعة . ص : 96 ـ 97 .

(**) بدأت الضجة حول المسألة الفلسطينية في النصف الثاني من تسعينيات القرن =

ويُثبت فيما يلي صورة لصفحتين من الرواية كنموذج لمعالجة هذا الموضوع فنياً

التاسع عشر ، عندما انخرطت الامبراطورية الألمانية في الصراع من أجل الشرق الأوسط واقتسام تركة « الرجل المريض »، وتزامن ذلك مع نهوض الحركة الصهيونية ـ الايديولوجية القومية للبرجوازية اليهودية ، ففي عام 1896 نشر الصحفي النمساوي اليهودي « ثيودور هرتزل » كتاب « الدولة اليهودية » الذي زعم أن اليهود القاطنين في مختلف البلدان هم أمة واحدة ، وحاول أن يعلل ضرورة تأسيس دولة يهودية في فلسطين . واتصل « هرتزل » إثر نشر الكتاب بأحد عملاء « عبد الحميد الثاني » السريين « فيليب نيفلينسكي » واقترح عليه استخدام أنصاره بمثابة وسطاء بين الباب العالي والأرمن ، وأن « هرتزل » سيعمل على أن تسهم الرأسمالية اليهودية في تسوية الشؤون المالية التركية المشوشة لقاء منح اليهود حقوقاً واسعة للهجرة إلى فلسطين والحكم الذاتي فيها ، وقدم قرضاً كبيراً للغاية بمبلغ 18 مليون ليرة تركية . ومليوني ليرة تركية بشكل مكافأة خاصة في حال الحصول على الحقوق المذكورة في فلسطين . وفي حزيران 1896 دُعي « هرتزل » إلى القسطنطينية ، وأجرى مفاوضات طويلة مع الوزير الأعظم ، ومُنح وسام المجيدية . وفي عام 1898 زار « غليوم الثاني » القسطنطينية وفلسطين ، وعشية الزيارة نوقش مشروع « هرتزل » بشأن تأسيس شركة صهيونية خاصة لاستيطان فلسطين . ثم قابل « هرتزل » في تشرين الأول 1898 « غليوم الثاني » في القسطنطينية ، وفي تشرين الثاني 1898 قابلة في القدس ، وألقى خطاباً فيها ، ولكن المشروع فشل . وبعد عامين قام بالمهمة المستشرق اليهودي « فامبيري » المُقرّب إلى السطان . وفي أيار 1901 جرى لقاء بين « هرتزل » و « عبد الحميد » ، وبعد مفاوضات جرت بين هرتزل وبين « ابراهيم بك وعزت بك » حدد الأتراك ثمن الصفقة بـ 30 مليون ليرة تركية مقابل موافقة شفوية على تقاطر اليهود إلى فلسطين بشكل جماعات غير كبيرة وتجنيسهم بالجنسية العثمانية . واستلم « هرتزل » وسام المجيدية من الدرجة الأولى . ثم انقطعت المفاوضات . في تموز 1902 دُعي هرتزل إلى بريطانيا والتقى مع روتشيلد واقترح عليه هذا أوغندا بدلاً من فلسطين لكن هرتزل رفض الاقتراح واقترح بدوره أن يُسلّم اليهود شبه جزيرة سيناء مع مدينة العريش وجزيرة قبرص . وشكلت المنظمة الصهيونية / الشركة الشرقية القوية ./ وأوكلت إليها أعمال =

« يافطة زراعية آو غير زراعية . ما يهم أنها دفعت في استانبول كي يسوغوا لها عملها ، ما يهم أنها تدفع أضعافاً مضاعفة لمن يبيع . فليهرع إذن سليم أفندي إلى الباشا الذي كان قد فرغ لتوه من الطعام ،وليس به رغبة للقاء أحد ،لكن سليم أفندي ، ووساوسه وهيجانه ، والباشا يصغي مرسلاً ناظريه عبر النافذة المطلة على شجيرات الجوري والبركة ،حتى إذا سكت سليم أفندي ، التفت إليه بحنو ، وقال بأناة :

- هم يحاولون أيضاً أن يشتروا في فلسطين . في حيفا وجنين وغور بيسان ،ولا أخفي عليك - أنت مثل أخي أني فكرت، في أن أبيعهم كل ما لي ، إلاّ الحرزة ، ليس طمعاً في مالهم . أنت تعرفني . لكني أحياناً أفكر في الخلاص من أمر الأرض ، الحرزة تكفيني من أجل المصيف . يمكن سمعت أن حماي قد باعهم الكثير ، رغم أنه ليس بحاجة إلى المال ، ورغم أنه يحب الأرض كما تعرف . وهو لا يجهل من تكون تلك الشركة .

قاطع سليم أفندي بانفعال :

- لكنهم يهود ياباشا . . يهود وفرنسيون وشياطين من بيننا .

قال الباشا :

= التنقيب التمهيدية في منطقة العريش . ثم التقى هرتزل في مصر مع كرومر القنصل العام البريطاني وطرح معه إمكانية شق قناة مياه من النيل إلى العريش ففاوض كرومر . وكان مقر المنظمة الصهيونية آنذاك في برلين ، ثم نقلوه إلى كوبنهاجن . في 1914 بدأت مفاوضات حاييم وايزمان مع البريطانيين اللورد صموئيل ولويد جورج وطرح تأسيس دولة يهودية ذات حكم ذاتي في فلسطين تحت الحماية البريطانية ،دولة تلتزم بالدفاع عن المصالح البريطانية على مشارف قناة السويس ،وفي أيلول 1917 اطلع وزير خارجية بريطانيا بلفور مجلس الوزراء على أن الرئيس الأمريكي ولسن المطّلع على المشاريع اليهودية في فلسطين قال : « انظر إلى الحركة الصهيونية نظرة في في غاية الرضى » و « أن الحكومة الألمانية تسعى لكل الوسائل إلى كسب عطف الصهاينة ،وفي 2 تشرين الثاني 1917 أصدر وعده . انظر « سياستان إزاء العالم العربي » . ص : 89 ـ 104 .

ـ قبل عشرين سنة ياسليم أفندي ، كنت لا أزال طالباً ،وكنت مع المرحوم في القدس ، لأول مرة كنت أزور القدس ، وكان فيها القصر الألماني ، غاب عني المرحوم غيبة طويلة وعاد مهموماً هل تعرف لماذا ؟

أجاب سليم أفندي بضيق :

ـ طيب الله ثراه ،ولكن نحن . .

تبسم الباشا مقاطعاً :

ـ وثرى أمواتكم . مهلك عليّ ، المرحوم سمع خطاب هرتزل أمام الحاج الألماني ، هل تعرف ماذا طلب هرتزل ؟ قبل عشرين سنة خططوا لشركة يهودية تشتري أراضي الشام ، منْ هنا إلى فلسطين . وهرتزل كان يرجو القيصر أن تكون الشركة تحت حمايته .

قال سليم أفندي بحزم :

ـ الفلاحون رافضون ويقفون في وجه من يبيع وفي وجه الشركة .

قال الباشا متعالماً ومشفقاً :

ـ أعرف . ولكن ماذا يستطيع الفلاحون أن يفعلوا ؟

أطرق سليم أفندي ـ حانقاً وحزيناً ، وجاء صوته كأنما يسحج :

ـ المعنى ؟ هل ستبيعهم أنت ؟

أسرع الباشا :

ـ قلت لك فكرت ولم أقل إني قررت .

تساءل سليم أفندي بهمود :

ـ ماذا ستقرر ؟

قال الباشا :

ـ لن أبيع : كم يهودياً تعرف أنت ؟ هنا أو في حلب كم تعرف ؟ أنا أعرف ماذا فعلوا في استنبول . أعرف ماذا تفعل الصهيونية في لندن ، في باريس ، في فلسطين . .

رفع سليم أفندي رأسه وقد تراخت تجاعيد جبهته ، وأقبل على الباشا :

ـ علينا إذن أن نفعل شيئاً .

طال الصمت قبل أن يجيء صوت الباشا محايداً :

ـ حاول ياسليم أفندي . آخرون يحاولون ، لا بد أنك تعلم . .

تردد سليم أفندي قبل أن يسأل :

ـ والباشا شكيم ؟

ـ هل سيحمل الباشا شكيم الدنيا على كتفه ؟ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها . أنت أهل لذلك .

قال الباشا وهو يتململ في جلسته ، فنهض سليم أفندي مودعاً ، يقلب في سره لأيام السؤال عمّا إذا كان الباشا شكيم خائفاً من خوض هذه المعركة ، أو منشغلاً بسواها ، أو غير راغب ؟

بيد أن سليم أفندي كان قد امتلأ تحدياً وتصميماً على أن يسعى هو إلى مقاومة الشركة . لن يدعها تشتري شبراً من الغوطة ، بل إن عليها أن تعيد ما اشترت عاجلاً أم آجلاً . وهكذا صارت أيامه التالية عراكاً مع المؤيدين والمعارضين والمتفرجين . وسعى مع كثيرين إلى إشاعة أمر الشركة بين الفلاحين ، وتحريضهم على سيدهم الذي باع أو الذي يفكر في البيع ، ونظم مع كثيرين العرائض للوالي ، وأبرقوا إلى استانبول ، وفي غمرة ذلك بات سليم أفندي أكثر شهرة ،وكان الباشا يثني على سعيه في كل مرة ، ويوصيه بالحذر ، ليس في هذا الأمر وحده ، بل في كل ما يأتيه »[1] .

ويمكن إضافة الملاحظات التالية إلى ما سبقها من ملاحظات حول الموضوع ذاته :

1 ـ عودة الروائي إلى الحدث التاريخي من خلال التصوير الفني لمقدمات تاريخية واقعية له ،تبرز نشاط المنظمة الصهيونية العالمية متعاونة مع أطراف الامبريالية العالمية للهيمنة على منطقة شرقي المتوسط (سورية الطبيعية ، والعراق) .

2 ـ تفصيل الحدث التاريخي عبر الحدث الروائي من خلال تقديم معلومات

(1) ـ « الأشرعة » . ص : 97 ـ 98 .

إضافية منها :

أ ـ الشركة الفرنسية اليهودية التي اشترت أراضٍ سورية في الغوطة وغيرها .

ب ـ محاولة مساومة استانبول على تنفيذ خطط الصهيونية .

ج ـ بيع بعض الاقطاعيين العرب أراض يملكونها إلى الشركات اليهودية .

د ـ زيارة « غليوم الثاني » إلى القدس ، وإلقاء « هرتزل » لخطابه فيها أثناء الزيارة نفسها . ورغبة الصهيونية في وضع الشركة تحت الحماية الألمانية .

هـ ـ نشاط الصهيونية في (لندن ، وباريس ، وفلسطين) .

3 ـ تقديم الحدث التاريخي بشكل فني يصور من خلاله موقف ممثلي الطبقات الاجتماعية كونه حدثاً يشكل منعطفاً أساسياً من منعطفات المرحلة التاريخية المحددة بزمان الرواية ويساهم في توضيح صورة واقعية لتلك المرحلة :

أ ـ الباشا شكيم نموذج فني يمثل الفئة المسيطرة الاقطاعية ـ التجارية المتنورة ، يعرف واقع التحركات الصهيونية الامبريالية في المنطقة منذ زمن بعيد ويعرف أن حماه « أمير الحج » قد باع أرضاً واسعة للشركة اليهودية ،ويعرف موقف الفلاحين الفقراء ،ويعرف ،ويعرف ، ولكن « هل سيحمل الباشا شكيم الدنيا على كتفه ؟ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها » .

ب ـ سليم أفندي نموذج لطبقة التجار والمنتجين ، يتمسك بملكية الأرض ويقاوم الصهيونية ،ويستفيد من معركته مادياً ومعنوياً ، أرضاً ووطنية معاً : « امتلأ تحدياً وتصميماً على أن يسعى هو إلى مقاومة الشركة » .

ج ـ أمير الحج نموذج للطبقة الاقطاعية المتعصبة متحمّس لخلافة المسلمين ويبيع أرضاً واسعة للشركة الصهيونية ، ويحذّر من مكائد الانكليز والفرنسيين ، وينعي على القوميين الأتراك جهلهم وحماقتهم القوميتين ويترحم على السلطنة والسلطان .

د ـ الفلاحون يرفضون بيع الأرض ،ولكن : « ماذا يستطيع الفلاحون أن يفعلوا ؟ » .

4 ـ تصوير الحدث التاريخي من خلال جعله نقطة هامة في تطوير الحدث الروائي

ومدماكاً لبنية العناصر الروائية : فقد جاء موزعاً على لسان الراوي ، وفي الحوار ، وعبر تصوير أثره في نفسية الشخصيات الفنية ، وخلال سياق ساخر ، « الحاج الألماني » وسياق جاد رصين . . أي أنه حقق وسيلة واقعية لسرد روائي تاريخي اجتماعي متنوع اللغات واللهجات والأصوات . انظر الملاحظات على هامش الصورتين .

5 ـ توضيح وجهة نظر الروائي في التاريخ الواقعي من خلال التاريخ المتخيل في الرواية فنياً للوصول بالقارىء إلى كشف الأحداث التاريخية على تربتها الاجتماعية وفي واقعها الموضوعي الذي يدل على طبيعة (العامل الذاتي) بشكل خاص ويبين كيف ساعد (العامل الذاتي) موضوعياً فاعلية (العامل الموضوعي) في تنفيذ المخططات الاستعمارية والصهيونية ، ويشير في الوقت نفسه إلى دور كل فئة من الفئات الاجتماعية في تلك المرحلة التاريخية .

6 ـ كثف الروائي الحدث التاريخي الواسع عبر مفردات قليلة (شركة فرنسية يهودية) و (دفعت في استانبول) و (في حيفا وجنين وبيسان) و (شياطين من بيننا) و (هرتزل) و (القيصر) و (الفلاحون) .

في الفصل الواحد والعشرين من « الأشرعة » قدم « نبيل سليمان » ، على لسان الراوي صورة فنية جديدة للأحداث التاريخية نفسها حين جمع بينها وبين ماجدّ عليها من أحداث تاريخية طارئة ، الحديث يدور حول « الباشا شكيم » : « . . لن ينفعه قدوم لميعة والمستر بيجيت ، فقد فات الأوان ، أما سليم أفندي وأمثاله في الميدان وفي غيره من الأحياء فلا يقدم اصغاؤهم له ولا يؤخر . بل إن نفسه لم تعد تصغي إليه أحياناً . ولعلها قد عاندته في ذلك أول مرة عشيّة الجلسة الأولى للمؤتمر السوري في مطلع الصيف(*) ، لقد بز أقرانه من المندفعين الذين كانوا يعدون شبان المؤتمر . لعل

(*) افتتح المؤتمر السوري العام يوم 7 حزيران 1919 رسميا في دار النادي العربي بدمشق ، افتتحه الأمير « فيصل » بخطبة ضافية بسط فيها الغاية من دعوته وتكلم عن اللجنة الأمريكية ومهمتها ،وقال : إن مهمة المؤتمر تنحصر في تمثيل البلاد أمام اللجنة الأمريكية وعرض أمانيها ،وفي سن القانون الأساسي فيكون دستور سورية =

صوته كان أعلى الأصوات في رفض الانتداب الفرنسي ، وفي رفض معاهدة سايكس ـ ويبكو وتعديلاتها(*) وفي رفض الهجرة الصهيونية إلى فلسطين ، كما علا صوته مَنْ قدّموا طلب المساعدة من الولايات المتحدة الأمريكية على بريطانيا(**). وكان شبان المؤتمر يحيونه ويهمسون :

المستقبل ، ويحفظ حقوق الأقليات . انظر ـ الثورة العربية الكبرى . مجلد2 ، جـ1 ، ص : 046 / وانظر ـ قصة الكفاح الوطني في سورية . ص : 15 / وانظر ـ الحركة العربية . ص . 491 ـ 493 . ثم تتالى الانعقاد كلما دعت الضرورة ، فانعقد بتاريخ 22 تشرين الثاني 1919 ، وبتاريخ 24 تشرين الثاني 1919 ، وأذاع بياناً إلى الشعب . انظر : الحركة العربية . ص : 537 / وانظر ـ الثورة العربية الكبرى ، مجلد2 ، جـ1 ، ص : 92 ـ 94 / كما اجتمع المؤتمر السوري رسمياً بعد ظهر السبت 6 آذار 1920 في دار النادي العربي ، وعقد جلسة ثانية يوم 7 آذار . وفي يوم 8 منه جرت البيعة في دار البلدية بدمشق ، وأعلن « فيصل » ملكاً ، وألف حكومة وأعلن الاستقلال . ثم عقد المؤتمر اجتماعاً آخر أعلن فيه ثلاثة مطالب وردت في الرواية مُلَخَّصة ، واجتمع المؤتمر في 13 تموز وقرر الدفاع عن الوطن ، ثم اجتمع المؤتمر في 15 وفي 17 وفي 18 تموز في دار المؤتمر صباحاً ، وواحدة مساء . وعقد جلسة قبل ظهر يوم الاثنين 19 تموز ، وجلسة أخرى بعد ظهر ذلك اليوم . ثم عطلت جلساته ، انظر ـ الثورة العربية ـ مجلد2 ، جـ1 . ص : 130 ـ 187 / وانظر ـ الحركة العربية . ص : 538 ـ 539 .

(*) المقصود بكلمة « تعديلاتها » هو : اتفاق « لويد جورج وكلمنصو » نشر الاتفاق في 27 أيلول 1919 ، وقد يقصد به مشروع « فيصل ـ كلمنصو » الذي تم الاتفاق عليه يوم 6 تشرين أول 1920 ، انظر الثورة العربية الكبرى . مجلد2 . جـ1 . ص : 89 / وانظر ـ الحركة العربية ص : 498 .

(**) المقصود لجنة « كراين » التي وصلت إلى بلاد الشام ، إلى « يافا » يوم الأربعاء 10 حزيران 1919 وأذاعت بياناً بمهمتها . وبعد أن وصلت إلى دمشق قابلها رئيس المؤتمر يوم 3 تموز 1919 وسلّمها قرار المؤتمر ، وكان على رأس وفد يتألف من واحد وعشرين عضواً يمثلون مناطق سورية المختلفة . وهذا القرار مصدق من جلسة المؤتمر المنعقد في 2 تموز =

- كنا نحسبك منهم ، ماذا تركت لنا ؟(*)

ويشيرون إلى الشيوخ ، الذين قالوا له متحسرين وعاتبين :

- كنا نظنك منا ،كنا نظنك أعقلهم .

ويشيرون إلى الشبان ،وينصحون بالأناة ، فالحكمة وحدها تنقذ ما تبقى من الشام ، وعهدهم قريب بما للباشا شكيم من حكمة وروية[1]» .

نلاحظ من خلال دراسة المقبوس أن الروائي قدم عدداً من الأحداث التاريخية الوطنية وجسدها ، فنياً ، في حدث تاريخي واحد هو انعقاد المؤتمر السوري في جلسة

1919 . ويحوي عشرة بنود شاملة لمتطلبات الشعب السوري . انظر - الثورة السورية الكبرى . مجلد 2 . جـ1 ، ص : 47 - 50 / وانظر - الحركة العربية . ص : 491 . وانظر - قصة الكفاح الوطني في سورية . ص : 15 .

(*) أية جلسة قصد نبيل سليمان ؟ . هناك ثلاثة احتمالات : الأول : قصد بها جلسة المؤتمر في 7 حزيران 1919 . لكن مهمة الجلسة كانت غير ما ورد في الرواية من قرارات ، ولم يكن تعديل اتفاقية «سايكس - بيكو» - قد تم بعد .ولم يظهر ،في الجلسة ،انقسام المؤتمر بين متطرفين (شبان) وبين معتدلين (شيوخ) . والاحتمال الثاني ،وهو الأقوى ،أنه قصد بها اجتماع المجلس في تاريخ 8 نيسان 1920 الذي تضمنت قراراته القرارات الثلاثة الواردة في الرواية ،وهذا الاجتماع ملائم لوصف الرواية له بأنه عقد في مطلع الصيف . والاحتمال الثالث ،وهو الأضعف ، أنه قصد بها أيا من اجتماعات شهر تموز 1920 في 13 أو 15 أو 17 أو 18 أو 19 سنة ، لأن هذه الجلسات كانت مخصصة للدفاع عن الوطن . بعد النظر في هذه الاحتمالات رأى الدارس أن الروائي لم يقصد جلسة تاريخية محددة حدثت في يوم معين بقدر ما قصد أن يجمع فعالية المؤتمر خلال جلسات عديدة ليجسدها فنياً في الرواية . انظر - الثورة السورية الكبرى . مجلد2 . جـ1 . ص : 146 / وانظر - قصة الكفاح الوطني في سورية . ص : 15 ، 16 ،وانظر / الحكيم ، يوسف ، 1983 - سورية والانتداب الفرنسي ، دار النهار - بيروت . ص : 7 -8

(1) الأشرعة . ص : 320 - 321 .

واحدة ، عرض من خلاله ملخصاً جوهرياً شمل العديد من اجتماعات المؤتمر السوري في جلسات عديدة ، ومن القرارات التي اتخذها منذ اجتماعه الأول في 7 حزيران 1919 إلى آخر جلسة له في 19 تموز 1920 ،وحدّد هذه الجلسة أنها كانت في مطلع الصيف .

وصور هذا الحدث التاريخي من خلال شخصية فنية واحدة (الباشا شكيم) حين رصد حالته النفسية المتصاعدة تلقائياً . وحمّل الروائي القرارات الهامة التي اتخذها الباشا ، إلى جانب شبّان المؤتمر ، عدداً من الدلالات التاريخية والفنية معاً . لعل الروائي أراد أن يدل على الحالة الارتجالية العامة التي كانت سائدة على أجواء اجتماعات المؤتمر بين الشبان وبين الشيوخ فجسدها فنياً في موقف نفسي صعب دفع « الباشا شكيم » لأن يقف ضدّ مصلحته الشخصية والطبقية عندما انحاز إلى جانب الشبان . أو ربما أراد أن يدل على أن المؤتمر السوري ، بشيوخه وشبانه ، بحماسة القرارات أو بعدمها ، لم يُجد نفعاً ، لأن الانتماء الطبقي لأعضاء المؤتمر لم يكن يمثل الفئات الاجتماعية الوطنية كلها ، أو على أن التشكيلة الاجتماعية السورية ، برمتها ، لم تكن على مستوى مجابهة الأحداث في الواقع العملي حيث لم يبق أمام ممثليها إلا أن يسجلوا قرارات تاريخية في سجل التاريخ ، وأنهم أرادوا أن يفعلوا كذا . . وكذا . . لكن الرياح جرت بما لا يشتهون . وربما هدف أنْ يدل على حالة الارتقاء الوطني والسياسي في تلك المرحلة من التاريخ السوري ، وأن يؤكد على الديمقراطية ، وعلى حيوية الشعب السوري ممثلاً في في نوابه الذين كان لهم طموح قوي في الحرية والاستقلال وقد تجسد ذلك فنياً من خلال تصوير الارتقاء النفسي لشخصية « الباشا شكيم » . وربما هدف الروائي ، أيضاً ، من خلال معالجة هذا الحدث التاريخي ، فنياً ، إلى إثارة التساؤلات في عقل القارىء ليصار إلى تأملها واكتشاف كنهها ، فيتابع الروائي ، بدقة خلال الرواية كلها . ليعرف الحقيقة أو يكتشفها منها .

أو ربما لم يقصد الروائي ما تقدم بتاتاً ، بل إنه سيّر حركة السرد تلقائياً ،وعلى القارىء أن يمرّ عليها مروراً تلقائياً ،أيضاً ، من دون الحاجة إلى أن يصنع « من الحبّة قبّة » .

إن تحليل السياق الروائي يسمح بجمع هذه الدلالات كلها دون الوقوع في التناقض المنطقي ، ليكشف بعض الدلالات التاريخية والفنية لهذا الحدث التاريخي في الرواية ،والوقوف على شكل من أشكال المعالجة الفنية في رواية « مدارات الشرق » .

يطور « نبيل سليمان » الحدث الروائي بتلازم فني مع تطور الأحداث التاريخية : فهو يعرض صورة فنية جديدة لمعاهدة « سايكس ـ بيكو » في الفصل الحادي عشر من « بنات نعش » انظر المقطع التالي حيث الحديث يدور في سياق متابعة شخصية « ياسين الحلو» عندما عمل في خدمة الأمير « دشاش » :

« ـ ولماذا الجذوع ؟

ضحك الفرنسي كأن ياسين ألقى نكتة ، وقال العبد متنفجاً :

ـ ألم تسمع ؟ من أجل الفحم . قل لي : ولماذا الفحم ؟

ردد ياسين ببله :

ـ ولماذا الفحم ؟

تطامن ياسين خجلاً ، ولما روى لهند ذلك رقرقت ضحكتها وقالت :

ـ ما حكيت لي أن القطارات التي كانت تنقلكم في الحرب تبلع الفحم بلعاً ؟ تكون مراكب الانكليز مثل القطارت ؟

ـ لا أعرف ؟

ـ ولا أنا

وعلا ضحكها .

وفي مسكنة ، كما في الرقة تردد اسم سايكس واسم بيكو أمام ياسين ، فخيل إليه أنه قد غدا يفهم ما يتحدث عنه الفرنسيان ، ووشوش العبد بذلك ، فوشوش العبد الفرنسيين ، فضحكا ،وخاطبا ياسين طويلاً ، وهو يجهد في أن يرسم تقاطيعه بحركة شفاههما وعيونهما ، إلا أن العبد سأله متنفجاً :

ـ فهمت ؟

تأتأ ياسين ، فضحك الفرنسيان والعبد الذي تابع :

ـ صاحبك سايكس هذا مر من هنا منذ أكثر من عشرين سنة ، وكان الشراكسة والتشاشان يتوافدون إلى الرقة . كان الشراكسة يفصلون في شجار دام بين الناس ، وما في الرقة للحكومة غير ولد واحد . فهمت ؟

أقبل ياسين متلهفاً :

ـ قل لهم إني سمعت أن سايكس هذا اتفق مع بيكو على اقتسام بلاد العرب كلها ، من هنا يرحل الأتراك وتنتهي الحرب ومن هنا تكون القسمة ، اسألهم : صحيح أم كذب ؟

ضحك أحد الفرنسيين ، وحدث الآخر ، وشرع العبد يحدثهما ، فإذا بالأول يسأل ياسين :

ـ هذا كلام الأتراك كلام البلاشفة حتى يفرقوا بيننا وبينكم ، اسأل الأمير دشاش نفسه .

تراجع ياسين خشية أن يكون قد أخطأ وود لو يقدر على أن يؤكد للفرنسي أنه يصدقه ، دون الحاجة إلى سؤال الأمير ، إلا أن هنداً عندما روى لها ذلك لم تشاركه يقينه ولا خشيته ،وقالت :

ـ ما حكيت لي أكثر من ذلك يوم فر حمادي الحسون ؟ وها الحرب انتهت والقسمة صارت يا ياسين أم لا ؟

ـ لا أعرف ؟

ـ ولا أنا .

رمت بكلمتها إذ ذاك ، دون أن تضحك ، ودون أن يضحك[1] . »

نلاحظ من المقبوس كيف عمّم الروائي الحدث التاريخي على مناطق الوطن كافة ، فما حدث في دمشق حدث في حمص وفي حوران . وفي الساحل وفي البادية والجزيرة وفي الرقة وحتى في مسكنة . .

ولعل الحدث التاريخي من خلال التصوير الفني لأثره في الشخصيات الفنية

(1) ـ « بنات نعش » ، ص : 202 ـ 203 .

المتنوعة ، والمتناقضة ، وفي كل مرحلة من مراحل حياة الشخصية الفنية الواحدة ،وبما يتلاءم وتطورها أو تغيرها دون قسر ميكانيكي للربط بين التاريخ وبين الشخصية الفنية أو بعيداً عنه : « ياسين الحلو » الذي قاتل في صفوف الجيش العربي « الميمّم شمالاً » وساهم في استقلال سورية وطرد الأتراك منها حسب استطاعته ،والفلاح المُهجّر ،تاريخياً ، الذي لم يعرف طعم الاستقرار ،والذي ذاق مرارة الظلم وقسوة الاستغلال والاضطهاد ، ألجأته ظروفه إلى حمى « الأمير دشاش » ، أو ساقه التاريخ أو القدر . . فظن أن معاناته الذاتية قد انتهت ،فصرف همه إلى تعميق نجاحاته في خدمة الأمير وراودته الأحلام . . لكنه وجد نفسه فجأة أمام « سايكس وبيكو » ، ومع الفرنسيَّيْن اللذَيْن يعملان في تحقيق مصالح الأمير دشاش كما يعمل هو .

يضطر إلى كَبْتِ ما تبقى فيه من وعي الوطن وينزل أشرعته ، و « يود لو يقدر على أن يؤكد للفرنسي أنه يصدقه دون الحاجة إلى سؤال الأمير » ، ويغصّ بضحكته التي ارتفعت عالياً قبل بدء الحديث عن سايكس وبيكو . ولّما روى لهند « ذلك لم تشاركه يقينه ولا خشيته وقالت : ـ القسمة صارت يا ياسين أم لا ؟ ـ لا أعرف . ـ ولا أنا . رمت بكلمتها إذ ذاك ، دون أن تضحك ، ودون أن يضحك » . ويدأ الحلم الجديد يتحطم[1] .

وحصر الروائي الحدث التاريخي بين حالتين نفسيتين متناقضتين في نفس شخصية فنية واحدة ، وفي سياقين متناقضين ضمن أسلوب إنشائي واحد .

وقدم « نبيل سليمان » الحدث التاريخي من خلال تصوير فني لما هو محسوس يفقأ العين : حين جعل واحداً من الفرنسيين يرد على فهم « ياسين » لمعاهدة « سايكس بيكو » : « هذا كلام الأتراك . كلام البلاشفة حتى يفرقوا بيننا وبينكم . اسأل الأمير دشاش ، تراجع ياسين خشية أن يكون قد أخطأ »(*) .

(1) انظر ـ بنات نعش . ص : 143 / حين « منى ياسين نفسه وهنداً بيوم قريب . . بعد أن يكون الله قد أراح الدنيا من رستم آغا وزلمه ومن الفرنسيين أيضا » .

(*) يلمس « ياسين الحلو » وطأة الاحتلال الفرنسي مرات عديدة في الرواية ، لمسها في =

ووظف الروائي الحدث التاريخي كرابط فني(*) ، أفاد تكراره في تأكيد موقف الأمير « دشاش » من الاحتلال الفرنسي ، بوصفه نموذجاً فنياً ـ تاريخياً لرؤساء بعض العشائر .

حاولت ، فيما مضى من بحث في هذا القسم من الموضوع ، أن أقدم تحليل نماذج عشوائية ، لأشكال المعالجة الفنية للأحداث التاريخية في رواية « مدارات الشرق » . فوصلت من خلال البحث إلى الاستنتاج التالي : من الصعب جداً أن يتمكن بحث واحد من الإحاطة بجميع طرائق المعالجة الفنية للأحداث التاريخية في هذه الرواية ، وأن متابعة البحث ستكشف ، في كل مرة ، طريقة جديدة من المعادلة ، نظراً لكثافة الأحداث التاريخية الموظفة ، ولتنوع طرائق معالجتها ، وللتركيز الفني في الوصل وفي الفصل وفي الحضور وفي الغياب ، بين الأحداث التاريخية وبين بنيتها في الرواية ، كعمل إبداعي تخييلي . إن دراسة هذا الجانب فقط ، في رواية « مدارات الشرق » تؤكد أنه لا توجد قوانين أو طرائق محددة للإبداع الفني بوصفه تحدياً دائماً يشمل الفن والواقع الفنان . وفيما يلي صورة صفحة واحدة من « بنات نعش » ربما تساعد على إظهار مصداقية هذا الاستنتاج :

« ـ يحرقون الأخضر واليابس هناك ويتصدرون المضافة هنا ؟ طيب وإذا سمع

« رستم آغا إقطاعي « الزنبقلي » ، ولمسها في الأمير دشاش » ، ولمسها في تجارة الحشيش ، وفي زراعته ، وفي مصير العبد « حمود » وفي بعض رؤساء العشار الأخرى . . مما أدى إلى انزوائه التدريجي ، وخبو نجمه في حمى الأمير « دشاش » ، ووقع في المرض . . خلال « الأشرعة ، وبنات نعش » . وقد يموت « ياسين الحلو » في الجزء الثالث (الذي لم يصدر بعد) دون أن يتمكن من التوفيق بين حمل الهم الوطني والانسجام معه وبين الواقع المرير الذي حلم بالانتعاش فيه .

(*) مر ذكر تأييد الأمير « دشاش » للاحتلال الفرنسي عندما قال ، أثناء تقصي لجنة « كراين » الأمريكية لرغبات السوريين ، : « نعم لفرنسا » . انظر ـ بنات نعش . ص : 137 و 138 و 134 .

الثوار؟ سعى إلى أن يهوّن عليها ، فقال :

ـ الثوار بدأوا يرمون سلاحهم ياهند . في اسكندرون استسلم قائدهم وعدد كبير منهم ،والباقون على الطريق . والأتراك قلت لك من آخر سفرة لي إلى هناك مع المرحوم . بعيني رأيت ، اتفقوا مع الفرنسيين . والسفرة كانت أهون ألف مرة من أختها السابقة . أنت ما أدراك ؟ يجوز أن الأمير دشاش وضع يده في يد الفرنسيين حتى يحمي العشائر والفلاحين .

ولم يشأ أن يحدثها عما بات يعلم من العهد القديم بين الفرنسيين والأمير ، فهذا ما يخصه هو ، ولا شأن لها به ، كما علمه غنيم الضرس .

خروجه مع الفرنسيين ما بين عين آدم شمالاً والفرات جنوباً ، ثم خروجه معهم على مجرى النهر شرقاً ، جعله يشفق على هند ، وعلى من كان يردد حوله أخبار الثوار زمن الزنبقلي . قال لها مرة : الفرنسيون أقوياء ياهند . الفرنسيون أقوى مما تقدرين ومما أقدر . أقوى مما يظن الثوار . وافهمي ياهند : الفرنسيون في كل ما رأيت هنا مّا أذوا نملة . بل أفادوا عشرات وعشرات في طول هذه المنطقة وعرضها .

وفي مرة أخرى جرؤ على أن يذهب أبعد ،فخاطبها،ولعله كان يخاطب نفسه :

ـ كما رحل الفرنسيون بالحسنى عن كيليكيا يرحلون عن سورية . فقط لو يتفق الثوار معهم كما اتفق الأتراك ، أو كما أتفق الأمير . أما القتال فلا يعود على أحد بخير . أنت لا تعرفين الحرب ياهند . يجوز جعت فيها ، يجوز خفت ، ولكن الحرب غير الجوع وغير الخوف . الحرب معناها الموت ياهند . ماذا استفاد الأتراك من الحرب ؟ قولي لي : ضاع سلطانهم وطارت الدنيا من يدهم ؟ ماذا استفاد ملكنا من الحرب ؟ مرة وصل بها إلى العرش ومرة طار العرش . سمعت لك أنه يسن أسنانه على عرش العراق . يجوز فهم النصيحة ، وعساه يلبد هذه المرة حتى لا يطير العرش ثاني مرة وآخر مرة ، والله أعلم . سمعت لك أن سلطان مكة نفسه قد طار ،ومن بعده طار ابنه ، وتقولين لي الحرب ؟ وبعد كل هذا اسأليني أنا . بعيني رأيت وبأذني سمعت ودمي على كفي . الفرنسيون ياهند غير الأتراك . كما كان الانكليز غير الأتراك . ليس هذا فقط

الفرنسيون غير الألمان ، مثلهم مثل الانكليز »[1] .

احتوت هذه الصفحة حوالي خمسة وعشرين حدثاً تاريخياً ، يمكن العودة إلى مصادرها التاريخية وإثبات وقوعها فعلاً . وتمرّ هذه الأحداث من خلال بنية ستة عناصر روائية : من خلال الحوار ، وعلى لسان الراوي ، والمونولوج ، وبناء الشخصية الفنية ، وبناء الحدث الروائي ، وبناء الأسلوب . وهذه العناصر في علاقة عضوية بالأحداث التاريخية متداخلة فيما بينها تداخلاً تلقائياً طبيعياً تداخل مياه النهر في مجراه وعلى سريره . وعلى الرغم من أن السرد يتعلق بشخصية فنية واحدة (ياسين الحلو) فقد ضمت الصفحة سياقات خطابية وأسلوبية متنوعة ، وأزمنة متعددة ،وحالات مادية وروحية مختلفة متغيرة ومتطورة ، وشخصيات فنية كثيرة ، فهل مرر الروائي ذلك كله عبر أحلام يقظة « ياسين الحلو ؟ » ربما . لكنه بنى جزءاً من الحدث الروائي ، وجزءاً من حياة كل شخصية فنية أو رسمية ، وحدد ، بصورة خاصة ، تفرد شخصية « ياسين الحلو » ومصيرها ، وأعاد تشكيل جزء من المرحلة التاريخية . . عبر التخييل الفني .

الحكومة العربية في عهد فيصل :

لم يحفل الروائي بعرض تاريخ الحكومة في عهد فيصل : لا بالحكومة التي عينها (فيصل) يوم 5 / ت1 / 1918 ، ولا بالحكومة التي عينت نفسها من قبل ، ولا اللواتي تشكلن بعدها ، حتى آخر وزارة في 25 تموز 1920 ، بل اكتفى بالإشارة إلى بعض الجوانب الجوهرية الهامة التي تعبر عما كتبه المؤرخون ، وعما جرى في الواقع لكنه لم يكتب كما ينبغي :

قدم الروائي أول حكومة عربية مؤقتة في دمشق بعد أن « ركب الوالي القطار[2] »

(1) ـ « الأشرعة » ، ص :

(2) الأشرعة ، ص : 105 / كان الأميرالاي « بهجت بك » وكيل ولاية سورية آخر من غادر دمشق ظهر يوم الاثنين 30 أيلول 1918 من القادة الأتراك . وكان قد اجتمع =

مباشرة عن طريق تصوير الشخصية الفنية « هشام الساجي » الذي شهد وداع الوالي في المحطة ، و « لم ينم تلك الليلة جيداً ، وإن ما استبد به من شأن النائب والكرسي الشاغر والحكم المأمول هو ما أسهده ، وجعله ذلك يغادر البيت مبكراً ، ويؤوب إليه مبكراً ، ويكون آخر من يعلم بانقضاض الأمير الجزائري(*) على الكرسي فشهق إنكاراً أو اندهاشاً أو عجباً ، ثم راح ينقب في الصندوق الذي أورثته إياه أم هشام عن المحمّدية التي أغشت عينيه في العتمة وفي الضياء ، وأرسل الرحمة الحارة على الجزائري(**) الأول الذي ضرب هذه القطعة وحارب عشر سنين أو خمس عشرة قبل أن ينفى إلى طولون ، ثم يختار الشام المقدسة مقاماً ، ويخصها اليوم بمن يملأ كرسيها الشاغر

= قبيل سفره بـ « شكري باشا الأيوبي » وسلّمه المدينة ، فذهب هذا لفوره إلى سجن القلعة ففتح أبوابه وأخرج المسجونين وعددهم أربعة آلاف تقريباً باسم جلالة الملك « حسين » . انظر ـ الثورة العربية الكبرى . مجلد2 ، جـ1 ، ص : 10 . وقد أشار الروائي إلى ذلك قائلاً على لسان الراوي « يفتح مصاريع القلعة ، ويخلي القشلات والحبوس » ـ الأشرعة : 108 .

(*) المقصود : هو الأمير « سعيد الجزائري » الذي رئس أول حكومة قوامها « شكري باشا وفارس الخوري ، وبديع المؤيد » ، وغيرهم . . وفي يوم 1 / ت1 / 1918 أرسل الأمير « سعيد » إلى المدن السورية برقية هذا نصها : « بناء على انسحاب الحكومة التركية فقد تأسست الحكومة العربية الهاشمية على دعائم الشرق طمئنوا العموم ، وأعلنوا أن الحكومة باسم الحكومة العربية » فتألفت على الأثر حكومة عربية في بيروت برئاسة « عمر الداعوق » . انظر ـ الثورة العربية الكبرى . مجلد2 ، جـ1 ، ص : 10 .

وكان « سعيد الجزائري » ميالاً للأتراك . انظر ـ الحركة العربية . ص : 99 و 184 و 394 . ومع ذلك فقد بعث الأمير « فيصل » رسالة إلى الركابي من درعا ، لكنها لم تصل ، يطلب منه استلام دمشق باسم الحكومة العربية وأن يعلن الحكومة المؤقتة باسم جلالة ملك العرب ، وأن ترفع الأعلام الهاشمية . انظر ـ نفسه ، ص : 328 .

(**) المقصود الأمير عبد القادر الجزائري (1805 ـ 1883) .

من صلبه(1) » .

« غير أن اجتماع الحجازي والجزائري على كرسي الشام أربك هشام الساجي . إذ خُيِّل إليه أنّ الأميرين يعتركان ، ولم يستطع أنْ يُنظِّم هواجسه في الفرنسيين والانكليز الذين كانت لهم جميعاً يدٌ فيما يبدو أنه كُتِب لكل من أسرتي الأميرين ولعل هشام كان قادراً في وقت آخر على أن يدقِّقَ في كل ما عنّ له ، ويعدِّد آسراً أخرى حكمت أو ناوشت الحكم ، في الشام أو في سواها(1) .

لكن حكومة الأمير الجزائري لم تدم بضعة أيام ، فما كادت لحية « هشام الساجي » تطول قليلاً ، حتى « كان الجنرال الانكليزي قد أقام حكومة عربية جديدة ،

(1) الأشرعة . ص : 106 .

(2) الأشرعة . ص : 108 / يشير الروائي من خلال المقبوس إلى ثلاث حقائق تاريخية ، الأولى : أن الأمير سعيد الجزائري كان متعدد الارتباطات ، مع الترك أولاً ، ثم مع الشريف حسين وفيصل والترك معاً وقد حاول أن يكون وسيطاً للصلح بين جمال باشا وفيصل بعد أن فضح البلاشفة اتفاقية سايكس بيكو ، ثم أصبح ميالاً إلى الفرنسيين قلباً وقالباً مما اضطر الجنرال اللنبي إلى اعتقاله ، وعندما اعترضت الحكومة الفرنسية على تنصيب فيصل ملكاً على العراق خاف الانكليز من تنصيب الأمير سعيد الجزائري على سورية . انظر هذه المعلومات في « الحركة العربية » ص : 99 ، 184 ، 185 ، 321 ، 323 ، 394 ، 397 ، 501 ، 575 ، 648 ، 649 .

الثانية : أن الشريف حسين وأبناءه والأسرة الهاشمية قد ارتبطت بالانكليز ارتباطاً تاريخياً .

الثالثة : أن كثيراً ممن حكموا الشام ليسوا سوريين منذ زمن بعيد بعامة وأثناء فترة الحكم التركي بخاصة .

لذلك فإن هشام الساجي يأمل أن يحكم أحد أبناء الشام وقد أشفق عليها مما يُرسم لها ، وآثر أن يُترك الكرسي شاغراً ولو ليوم « عسى أن تنهض الشام من عثارها وحدها » فطار من ركن إلى ركن فيما عبر به أو أقام فيه من الشام المنداحة المقدسة « الأشرعة » ص 108 .

وكان الأمير الحجازي قد ورث الأمير الجزائري[1] » ، وحلقَ هشام الساجي لحيته .

معركة « مرجمين » ومظاهرات الجوع في حماه، تكشفان عن بعض الأسباب الجوهرية لعجز حكومة فيصل العربية في الريف والمدن :

اهتم الروائي بتصوير العلاقات الاجتماعية في الريف (وفي المدن) . وركز كثيراً من جهوده الفنية لكشف واقع العلاقات المتنوعة القائمة بين الفلاحين المحاصصين في إنتاج الأرض وبين الاقطاعيين المالكين لها والمسيطرين على إنتاجها في مناطق من سورية : (في حوران ، والغوطة ،وحمص ،وحماه ، وادلب ، وصافيتا ، وجسر الشغور ، وشمالي اللاذقية ، وشرقي حلب ، وغربي الفرات وشرقيه) من خلال متابعة تصوير حياة الشخصيات الفنية المتنوعة والمختلفة والمتناقضة . . وقد تمكن الروائي في « الأشرعة » من أن يدل ـ عبر جملة البنية الروائية ـ بذكاء فني موح إلى أن معركة « مرجمين » رمز وواقع ، معاً ، كشفا عن سيرورة العلاقات المتناقضة القائمة بين الجماهير الشعبية الكادحة ممثلة في الفلاحين وبين المالكين ممثلين في الاقطاعيين وسلطاتهم :

تشجّع فلاحو قرية « مرجمين » بعد رحيل الأتراك ، وغياب « ابن الفطيم »

(1) « الأشرعة » . ص : 109 / دخل الجيش العربي بقيادة فيصل دمشق يوم 2 ت1 1918 لكنه لم يعزل الأمير سعيد الجزائري مباشرة ، إلا بعد أن أخذ الإشارة من الجنرال اللنبي . فعزله يوم 5 / ت1 / 1918 وعيّن آمر اللواء رضا باشا الركابي باسم مولانا السلطان حسين . انظر « الثورة العربية الكبرى » مجلد 2 . ص : 3 . وقد أبرق اللنبي يوم 6 / آب / 1918 بضرورة وضع دمشق وبيروت تحت الحكم العسكري ، انظر « الحركة العربية » ص : 398 .
والواقع أن فيصل والجنرال اللنبي كانا يخشيان من علاقة سعيد الجزائري بالفرنسيين وقد حنق الأمير سعيد وأخوه عبد القادر بسبب تسليم زمام الحكم للركابي باشا ، وبدأا يتظاهران بالضباط الفرنسيين مما حدا بالركابي إلى اعتقال سعيد ، وقتل عبد القادر،انظر « الحركة العربية » ، ص 323 .

ومجيء حكومة فيصل في الجيش العربي ، فأحب « نجوم » بنت « نظير الصوان » الذي « استطاع أن يجمع كلمة الفلاحين في مرجمين وقادهم إلى طرد الوكيل شرّ طردة[1] . وتشجّع « عزيز اللباد » على « ابن بشارة » إقطاعي قبية ،وتمرد على رئيس عشيرته « ابن الدباس » .

« كان الأتراك يرحلون عندما وقفت (مرجمين) بوجهه (ابن الفطيم) ووجه وكيله في المرة الأولى . كان الانكليز قادمين والحكومة قادمة والآغا قد فقد كل سند . أما الآن فقد يكون قادماً بسند أقوى لن يبقى الآغا مكشوف الظهر ، ولئن انتصر هذه المرة فسيكون انتقامه مروعاً . لن يكتفي الوكيل الجديد بقسر عبد اللطيف الصوان على أن يقرط حبات العدس ، كي يعرف إنْ كان قد سرق حبة حصرم من الكرم . سوف يفتح الوكيل الجديد بطن الطفل حتى يكون عبرة لمرجمين ، وابن الفطيم يقهقه[2] » . و « لئن كان فياض الصغير لم يستطع أن ينفع أباه الميت في معركته فسوف ترى نجوم ماذا يفعل فياض الكبير من أجل نظير الصوان[3] » .

وحدّد عزيز موقفه : « ليست مرجمين بعيدة عن قبية ، ليست بعيدة عن صافيتا ، كما أنها ليست بعيدة عن ساحة البلدية[*] ، مرجمين قريبة من الشام كلها ، فيها الشام كلها . بل إنّ « عزيزاً » يجزم أن فيها الأمير نفسه ، ما دام فيها ابن الفطيم وقائد القشلة[**] فيها الانكليز أنفسهم والفرنسيون معهم ، ما دام الأمير وابن الفطيم وقائد

(1) : « الأشرعة » . ص : 208 .

(2 ـ 3) ـ « الأشرعة » . ص : 213 . / يربط الروائي بين معركة مرجمين ومعارك الجبل التي خاضها الفلاحون في الجبل ضد الأتراك والدنادرة بقيادة والد فياض .

(*) ـ يقصد بلدية حماه حيث جرت مظاهرات الجوع ، انظر : الأشرعة . ص : 371 ـ 375 .

(**) ـ صديق حميم لابن الفطيم انظر : « الأشرعة » . ص : 376 .

القشلة فيها ، رستم آغا(*) ، وياسين الحلو ، الشيخ منصور وأبو عاطف ، المكاري وابن البزار ، فيها العم حاتم بلا ريب . فيها أولاء جميعاً ، فيها كثيرون ممن يعرف وممن يجهل ، ما دامت نجوم وأمها وأبوها وأخوتها وفيها العقدة وعزيز اللباد فيها ، حتى إنْ تراجع قائد القشلة أو ابن الفطيم ، ليس لفياض أو عزيز أنْ يتراجعا . الانفجار وشيك وليس لهما أن يتراجعا(1) .

ناصر الجنديان « فياض ، وعزيز » الفلاحين في المعركة التي دارت على مشارف « مرجمين » فاستُشهد « نظير الصوان » ، وقُتِل قائد الحملة ، وحَرق الفلاحون جثته في ساحة(**) « مرجمين » ، وأُصيب « فياض » ، ثم جاءت حملة جديدة فهَدَّمت القرية ، وتَشرّد أهلوها ، وضاع أخوة « نجوم » ، وفرّ « عزيز اللباد » من الجيش والحكومة العربية ، بعد أن عرَّف « نجوم » العم « حاتم أبو راسين » ثم فرّ « فياض العقدة » من المشفى . .

لقد أثرت معركة « مرجمين » في تحديد مصائر عدد من الشخصيات الفنية : (نظير الصوان وأفراد أسرته : ماتت أم عبد اللطيف في المعركة . وضاع عبد اللطيف ، ونافع ، وترياق . وفرّ « عزيز وفياض ، » واتصلت « نجوم » بالعم « حاتم »

على هذا النحو من التصوير الفني كشف « نبيل سليمان » عن الجوهر الطبقي للحكومة العربية في عهد « فيصل » ، وعن أسباب عجزها التاريخي ، حين لم تستطع أن تستميل الجماهير الشعبية الكادحة في المدن وفي الريف وفي البادية ، إلى جانبها ، في صراعها ضد الأطماع الفرنسية ، لأنها لم تحقق للجماهير الكادحة أية مكاسب مادية أو روحية عميقة . لذلك رأى « هشام الساجي » فيها وفيمن تمثلهم « أس البلاء في أرجاء

(*) ـ آغا الزنبقلي .

(**) ـ لقد أحرق الفلاحون في إحدى قرى « حماه » جثة قائد حملة في عهد الحكومة الفيصلية ، التقط نبيل سليمان هذه الواقعة الفعلية ، ونقلها إلى القرية المتخيلة في الرواية « مرجمين » / مقابلة مع الروائي / .

(1) « الأشرعة » . ص : 380 / الهدف من ذكر أسماء الشخصيات هو الربط الفني بين هذه المعركة وما سبقها .

الشام كلها »[1] .

الاحتلال الفرنسي لسورية :

عالج الروائي موضوع الاحتلال الفرنسي لسورية باعتباره جزءاً لا يتجزأ من جملة العوامل التي أدت إلى رحيل الأتراك من سورية ودخول الجيش العربي والجيش الانكليزي ، واحتلال الفرنسيين لمناطق من الساحل السوري بوصفه نتيجة تاريخية موضوعية من نتائج الحرب العالمية الأولى وأهدافها ، وتنفيذاً للاتفاقيات والمعاهدات التي عُقِدت بين الدول المنتصرة بعامة وبين الفرنسيين والانكليز بخاصة .

لم يحفل الروائي بتصوير الجانب العسكري (المعارك) الذي رافق هذا الاحتلال ، بل ركّز اهتمامه الفني على تصوير مضامينه الجوهرية ورصد أثرها في العامل الذاتي : في تصوير وقعه ووطأته وهيمنته على مجرى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية ، بصفته عاملا موضوعياً متشابكاً في العامل الذاتي في جملة علاقات متنوعة مؤتلفة ومختلفة ومتناقضة ،من خلال التصوير الفني لحياة الشخصيات الرئيسية كلها ، لذلك بقي الاحتلال ، خلال جزئي الرواية ، كابوساً فظيعاً ثقيلاً مخيماً على العالم الروائي ، جاثماً على صدور الناس الذين حاولوا النهوض مرات عديدة لكنهم أخفقوا في إزاحته ، فظل مصدراً لكل بلاء وأسّاً له :

من المعروف ، تاريخياً ، أن الاحتلال الفرنسي لسورية بدأ منذ عام 1918 باحتلال الساحل السوري ، ثم اكتمل في عام 1920 ، ماراً بالأحداث التاريخية التالية :

احتلال الساحل السوري وتقسيم البلاد :

في الفصل الثالث عشر من « الأشرعة » ، أثناء حوار دار في بهو « الأوتيل » بين « ابن الأكاشي » وبين الملازم « تحسين » وبين من تؤكد ثيابهم أنهم من علية القوم[2] ،

(1) انظر ـ الأشرعة . ص : 51 .
(2) « الأشرعة » . ص : 430 .

قال « رضا بك » : « ـ الدنيا لا تنتظر » .

قال أحدهم إلى يمينه ، وكان يبدو أكبرهم سناً :

ـ بدلاً من أن تفكر ، في هذا ، فكروا فيما يجري على الساحل(*) . فرنسا بدأت اللعب ولن تترك علمنا يرفرف هناك(1) ، والانكليز لاهون ، ونحن نريد أن نوزّع العساكر على المخافر ، وأن نزيد المخافر ، كأن الحرب قد انتهت !

قال تحسين : ـ ما تقوله حق أيضاً . نحن خائفون أيضاً ولا حديث بين الضباط إلا هذا الحديث . .

قال أحدهم : ـ الجنرال(*1) مستعجل على تقسيم البلاد إلى مناطق عسكرية ، أو تنظيمها كما صحح الأمير(*2) لي ، لا تضحكوا ، وأنتم مستعجلون على النظام هنا

(*) المقصود احتلال الفرنسيين للساحل السوري : في العاشر من تشرين الأول 1918 هاجم الفرنسيون المرافىء السورية اللبنانية ، ولم ينته عام 1918 حتى كان الفرنسيون قد احتلوا جميع هذه الموانىء من طرابلس حتى اسكندرونة ، فقط كانت بيروت ما تزال تحت الاحتلال الانكليزي . انظر ـ قصة الكفاح الوطني في سورية . ص : 14 / وانظر ـ الثورة العربية الكبرى ، مجلد 2 جـ 1 ، ص : 13 .

(1) المقصود حوادث إنزال العلم العربي في بيروت يوم 9 تشرين الأول باحتفال عسكري انظر ـ نفسه . ص : 13 / وبغير احتفال عسكري بل بتمزيق الجنود الانكليز له . انظر ـ الحركة العربية . ص : 399 .

(* 1) المقصود الجنرال « اللنبي » الذي أصدر بلاغاً في 22 تشرين الأول 1918 يقضي بتقسيم سورية إلى ثلاث مناطق : « الجنوبية ، والشرقية ، والغربية » . وذلك بموجب اتفاق 30 ايلول 1918 بين فرنسا وانكلترا تطبيقاً لاتفاقية « سايس بيكو » و « وعد بلفور » . انظر ـ سورية والانتداب الفرنسي ، ص : 6 / وانظر ـ الثورة العربية الكبرى . مجلد 2 . جـ 1 . ص : 11 / وانظر ـ الحركة العربية . ص : 395 ـ 397 .

(* 2) المقصود : الأمير « فيصل » الذي كان مخدوعاً بأقوال الانكليز ، والذي ألقى خطاباً في حلب في 11 تشرين الثاني وأثنى فيه على الحلفاء . انظر ـ قصة الكفاح الوطني في سورية ، ص : 14 .

والمخافر وما لا أدري ، وفرنسا مستعجلة على الساحل ، والانكليز مستعجلون على استنبول . . ما شاء الله . .

قال ابن الأكاشي يحذر : « ـ يا أخي : لا الانكليز ولا الفرنسيين . . ما حك جلدك مثل ظفرك » .

على هذا النحو الوارد في المقبوس يُمَرِّرُ الروائي ، بإيجاز شديد ، الجوهرَ الحقيقي لاحتلال الفرنسيين للساحل السوري ، من خلال إعادة قراءة الحدث التاريخي ، واكتشافه في إطار واقعه الاجتماعي والإنساني : حيث كان عليةُ القوم يتناقشون في شؤون الوطن في بهو « الأوتيل » ، ويهتمون بالمخافر وبتوزيعها ، وبالنظام الذي يجب أن يستتب أولاً وقبل أي شيء آخر . ومن الواضح أن الروائي قد تقمص شخصية « أحدهم » الذي قال الحقيقة التاريخية مرتين ليَرَى ردّة فعل الشخصيات ، فصدّق الملازم « تحسين » على القول ، وحلُم «ابن الأكاشي » بحك جلده بظفره . . . أما الفرنسيون فقد احتلوا الساحل السوري ، وانزلوا العلم العربي في بيروت ،وقُسِّمت سورية إلى ثلاث مناطق تنفيذاً لاتفاقية انكليزية ـ فرنسية موائمة لتطبيق اتفاقية « سايكس ـ بيكو » ، و « وعد بلفور » ، وردَّ الأمير « فيصل » ذلك إلى ما سمّاه تنظيماً وليس تقسيماً[1] ، لذلك طلب (المتحدث ـ أحدُهم) من أولئك الحاضرين ، ومن

(1) كان الأمير « فيصل » يُردِّد مضمون الإيضاح الذي أرسله « وِنْجِتْ » من القاهرة إلى « الشريف حسين » : « إن البولشفيك لم يجدوا في وزارة الخارجية في بتروغراد معاهدة معقودة ، بل محاورات ومحادثات مؤقتة بين انكلترا وفرنسا وروسيا في أوائل الحرب لمنع المصاعب بين الدول أثناء مواصلة القتال ضد الترك ، وذلك قبل النهضة العربية ، وأن جمال باشا إمّا من الجهل أو الخبث غيّر في مقصدها الأساسي وأهمل شروطها القاضية بضرورة رضى الأهالي وحماية مصالحهم . . » وأضاف « ونجت » في نهاية برقيته سائلاً « هل أستطيع أن أضيف أن الاتفاقية ميتة من جميع النواحي العملية » . وقد قرأ الأمير فيصل نصّ هذا التصريح في حلب يوم 11 تشرين الثاني ، وقال « إنه من المستندات التاريخية العظيمة » . انظر ـ الحركة العربية . ص : 387 ـ 388 . وكذلك كان الأمير =

القرّاء ، أنْ لا يضحكوا .

ثم عاد الروائي إلى تفصيل هذا الحدث التاريخي ، وتبيان أسبابه التاريخية الموضوعية من خلال الحوار بين « الباشا شكيم » وبين « سليم أفندي البسمة » ، بوصفهما شخصيتين فنيتين رئيسيتين ، عبر تصوير وَقْعِ الحدث التاريخي عليهما ، ورصدِ تأثيره في كل منهما ، من خلال خطابين متفاوتين : الأول خطاب منطقي تبريري جافّ ، مثله « الباشا شكيم » ، والثاني خطاب شاعري عاطفي صوّر عمق المأساة ومرارتها في نفس « سليم أفندي البسمة » . انظر الحوارين في الصورة التالية من الرواية :

« كان يحسب أنه قد فكر جيداً في أمر الشام ، استنبول ، الحجاز ، الحلفاء ، بل إنه لم ينس أحداً ، حتى الروس فكر بهم ، والتقى بكثيرين يهللون اليوم للأمير وللحاكم العسكري وللانكليز . وقد كانوا لتوهم يهللون للسلطان . التقى بالرؤوس التي تأرجحت على مشانق المرجة ، وقفز يهتف كأنه ابن العشرين ، حين ارتفع العلم العربي في الشام . أسرع إلى بيروت ، لا ليسكر ولا ليقامر هذه المرة ، بل ليرى العلم العربي يرفرف قبالة البحر وخلال الغابات . لكن الفرنسيين كانوا قد سبقوه . أبهظه القلق على هذا العلم الذي لم يكد يبرق في طرابلس أو اللاذقية أو انطاكية حتى رُمي أرضاً . التقى ضباطاً فرنسيين وانكليزيين وعرباً . وفكر في أن عليه أن يملص كما ملص من قبل ،خاتله الندم على أنه لا يسعى جيداً من أجل الشام ، بل إنه لم يسع من قبل كما

= يردد مضمون التصريح الفرنسي - الانكليزي الذي نُشر يوم 8 تشرين الثاني 1918 في لندن ونيويورك وباريس والقاهرة : أن هدف الدولتين هو « التحرير التام النهائي للشعوب التي طال اضطهاد الترك لها » وأن الدولتين « متفقتان على تشجيع إقامة الحكومات والإدارات الوطنية ومساعدتها في الأراضي التي حررها الحلفاء » . انظر - نفسه . ص : 408 - 409 .

لذلك ظلّ الملك فيصل يهاجم الترك والبلشفيك على أنهم يودون الدسّ بين العرب وحلفائهم الانكليز ، وعلى أنهم يمدون أصابعهم في سورية لهذا الغرض .

ينبغي ، أصغى إلى الخواجة ثابت يُزيِّن البديل الفرنسي ، يعرِّض بالبديل الانكليزي ، وإذْ يذكِّره سليم أفندي بالحكومة العربية في الشام والثورة في الحجاز ، يمد الخواجة يده بالكأس ويهز رأسه :

- كن عاقلاً ، أبو علاء . .

ويلتفت إلى الباشا شكيم ، يذكِّره بعهد الدراسة ، فنصف المدارس والطلاب كانوا في الشام لفرنسا قبل الحرب ، وجلّ الذين قاوموا السلطان إنما تربوا على يد المبشرين الفرنسيين ، حتى من يعارض منهم فرنسا اليوم . وهي لا زالت على السواحل . نصف ديون السلطنة المرحومة كانت لفرنسا قبل الحرب .

والسلطنة إياها لم تقتَفِ حين حاولت أن تخرج من ظلامها أول مرة إلاّ بالتنظيم الفرنسي ، ولولا ذلك لما كان لأسرة الباشا في الغوطة شبر ، ولما كان لأمير الحج من الأراضي الموقوفة في سواها شبر . وسليم أفندي يعرف ذلك وينكره ويقرُّ بِهِ في آن . وإذْ يأوي تطلعُ له الشام ،تمنعُ عليه النوم ، وتتخلّق له شاماً أخرى . شاماً جديدة ، حبلى أو عاقر ، جميلة أو قبيحة ، قوية أو ضعيفة ، كسيرة أو عزيزة ، إنها غير الشام التي عرف في ذلك الدهر المنصرم ، وهو لم يتعود أن يناديها بسورية . على الرغم من أنه قد يكون فعل ذلك من قبل . ولئن كان الأتراك قد رحلوا ، والعلم العربي قد ارتفع هنا في حلب ، في حمص ، في حماة ، ولم يرمِ بِهِ أحدٌ بعد أرضاً ، فإن هذه الشام قد صغرت كثيراً ، في رفّة جفن قد صغرت . هذه الشام ليست تلك التي تصل منذ كانت بين الحجاز والأناضول ، بين العراق والبحر . هذه الشام كانت الشام وكانت سورية ، واليوم يراد لها أن تكون سورية وحسب . هذه السورية لم يترك منها الانكليز والفرنسيون غير القليل ، الساحل أخذه الفرنسيون ، والانكليز أخذوا الشرق ، وفلسطين تلعب عليها عين اليهود . صارت الشام أصغر من كف سليم أفندي ، صارت تضيق بهم كما يضيق بها ، فهل من أجل ذلك كانت الحرب ؟ هل من أجل ذلك كان ينتظر هزيمة الأتراك ؟ هل من أجل ذلك ساورته الرغبة مراراً بالفرنسيين والانكليز ، وإنْ كان أيضاً يرجو النصر للألمان ؟ لقد كانت الحرب تبدو له ضرورية ومبررة . لكنها باتت تبدو

متناقضة . وإذ يرسل عينيه بعيداً ، نحو مستقبل ما ، يجتمع ذلك كله عليه ، فيأخذ العشى ببصره ، ويبحث عن خلوة مع الباشا شكيم ، ليس لأنه واحد من النجوم التي تتلامع هذه الأيام ، بل لأنه صديقه الأثير ، إلا أن الباشا في شغل شاغل عن سليم أفندي وعن سواه ثمة ، في القصر ، حيث الزحام في أشده ، ليل نهار ، وقد ضاق سليم أفندي بالزحام » .

الانسحاب الانكليزي من سورية :

عرض الروائي نبأ انسحاب الانكليز من سورية ، من خلال تصويره لحركة الشخصيات الفنية وذكر الكلمات التي تدل على جوهر الحدث التاريخي مباشرة .

« **الباشا شكيم** » : « قد يكون أجل سفره إلى برلين آخر مرة ، بسبب انسحاب الانكليز ،وعاوده السؤال الذي لم يهدأ في سرّه وفي علنه منذ بدأ الانسحاب : من سوف يمنع الآن الفرنسيين من التقدم »[1] .

أما « سليم أفندي البسمة » فما كاد : « ومن حوله يألفون عودته من مصر حتى انهمك في تحفيز وتنظيم المتطوعين في الحي ،وراح يسعى من مكان إلى مكان ، لتأمين تدريب المتطوعين وتسليحهم »[2] ، و : « تحسر على أن الشام لم تُفِد من ثورة مصر[3] » التي تأثر بها أيما تأثر : « الانكليز أولاً إذن . لقد كان ذلك قميناً أن يُخلِّص سليم أفندي مما به ، ويرسم سبيله لولا أن الانكليز قد غادروا ، وودعت طائراتهم بالمناشير[*] ،

(1) : « الأشرعة » . ص : 319 .

(2) : « الأشرعة » . ص : 347 .

(3) : « الأشرعة » . ص : 348 .

(*) بدأ الجيش الانكليزي بالجلاء عن حلب ودمشق ، وانتهى بانتهاء شهر تشرين الثاني 1919 وفي يوم 25 / ت2 / 1919 : طارت الطيارات الانكليزية في سماء دمشق =

والمقايضة[*1] مع الفرنسيين توشك أن تنجز »[1] .

« الخواجة ثابت » حضر إلى دمشق ليُقنع معارفه « الباشا شكيم » و « سليم أفندي » بضرورة قبول انتداب الفرنسيين ، وعدم معارضتهم : الباشا شكيم يلجأ إلى كتمانه وعدم تورطه ، ما دام قد سجّل التاريخ رأيه في جلسة المؤتمر السوري ، والآن فقد جدّ الجد عليه إذن أن ينسحب برفق وحكمة ، لذلك طلب من « سليم أفندي » أن : « يتولّى بدلاً منه شؤون زيارة الخواجة إلى الشام »[2]

ثم أدار الروائي حواراً وَدَّ أن يكون طبيعياً بين « الخواجة ثابت » و « سليم أفندي » ليوضّح ، من خلال رأيي الشخصيتين الفنيتين ، صورة عمّا يجري في الواقع : « الخواجة ثابت » رأي أن فرنسا تأخّرت عشرات السنين ، كان عليها أن تحسمَ الأمور هنا منذ أن استولت على[3] الجزائر ، ونصَح صديقه أن يأخذ درساً من بيروت التي سلّمت أمرها منذ البداية واستراحت[4] ، وأن لا ينخدع مثل سواه « بالأصابع التركية أو البلشفية التي تلعب هنا ، كما تلعب في تركيا نفسها »[5] ، وطلب منه أن يتذكر ما قاله الأمير (فيصل) في حلب : السواد الأعظم من الشعب لا يفقه معنى الوطنية والحرية

= وألقت أوراقاً كتب فيها : « إن القائد العام للجيش البريطاني وضباطه وعساكره في دمشق يرومون أن يودّعوا سموّ الأمير زيد المعظم والهيئة الحاكمة وأهل دمشق ويشكرونهم من صميم أفئدتهم على ما أظهروه نحوهم من العطف أثناء وجودهم بدمشق ويتمنون من كل قلوبهم مستقبلاً حسناً لدمشق وللشعب العربي كله » . انظر : « الثورة العربية الكبرى »» . مجلد 2 . ص : 92 .

(* 1) المقصود : تنازل الفرنسيين عن زيت الموصل للانكليز مقابل إطلاق يدهم في سورية : انظر « الثورة العربية الكبرى » . مجلد 2 . ص : 90 ـ 91 .

(1) « الأشرعة » . ص : 352 .

(2) « الأشرعة » . ص : 353 .

(3) « الأشرعة » . ص : 354 .

(4) ـ انظر ـ نفسه . ص : 353 .

(5) ـ نفسه . ص 355 .

ولا ما هو الاستقلال حتى ولا ذرّة من كل هذه الأمور[1] وما قاله : « الباشا يسخر من ذلك الذي أقسم في بيروت يمين الولاء للعلم العربي ، وبعد أيام أقسم[*1] يمين الولاء للعلم الفرنسي[2] » ، ثم خاطبه قائلاً : « أنت نفسك حدثتني عن فرح الناس ولقائهم للأمير حين عاد من فرنسا . السبب ؟ كيف جَرّ الشبان[*2] مركبته في بيروت وخرجوا إليه ؟ لأنه اختلف أم لأنه اتفق مع فرنسا ؟ »[3] .

احتلال الفرنسيين لسورية كاملة :

تفاجأ « هولو » بالجنود الفرنسيين يحتلون « رياق » ويستعدون لاحتلال حمص وحلب ودمشق[4] . ثم قص عليه « عبد الودود السعد » كيف دخل الجنرال الفرنسي إلى دمشق : « ـ لم يعد أحد يدخلها والحمد لله إلّا على ظهر حصان . الملك من سنتين[*3]

(* 1) المقصود : هو « حبيب باشا السعد » الذي عينه « شكري الأيوبي » حاكماً مدنياً لمدينة بيروت ، انظر ـ الثورة العربية الكبرى ـ مجلد 2 . جـ 1 . ص : 11 .
(* 2) وصل الأمير « فيصل » إلى بيروت يوم 19 تشرين الثاني ، وقام الشباب بسحب عربته في شوارع بيروت تأييداً للعرب وللاستقلال ، وليس تأييداً للفرنسيين . انظر ـ الحركة العربية . ص : 417 . لكن الروائي يجعل الأمر معكوساً على لسان « الخواجة ثابت » في الرواية . انظر المقبوس .
(1 ، 2) ـ نفسه . ص : 355 .
(3) انظر ـ الأشرعة : ص : 355 .
(4) ـ انظر ـ الأشرعة : ص : 16 / احتل الفرنسيون « رياق » في الساعة السابعة من صباح يوم 12 تموز 1920 . انظر « الثورة العربية الكبرى » مجلد 2 . ص : 166 / وتقدمت قوة أخرى إلى دمشق ، وحلب . انظر « الحركة العربية » . ص : 561 .
(* 3) ترجل الأمير من سيارته حينما بلغ ضاحية دمشق يوم 2 / ت1 / 1918 قادماً من الأزرق فركب جواداً عربياً كريماً ، وسار في موكب حافل يحيط به 1500 فارس من رجاله ، فاخترق دمشق من الجنوب حتى الشمال . انظر « الثورة العربية الكبرى » .=

الجنرال[*1] من شهرين[1] » .

أمّا رحيل الملك فيصل من سورية فقد أخّر الروائي ذكرَه إلى الفصل التاسع من « بنات نعش » ،وعرضه خلال مشهد فني أراده أن يكون معبراً عن تقويم عام يعكس جوهر سياسة الملك (كما رآها الفلاحون وراغب الناصح وربما الروائي أيضاً) في عهد توليه زمام الأمور في بلاد الشام : « كان يحلو لراغب أن يردد في سره ، أو أمام دهيبة ، ما حفظ من ألسنة الفلاحين ، وهم يسامرونه في الليالي القارسة ، فيصفون الملك المخلوع ،والقطار الذي رماه غير بعيد عنهم ، والجنيهات المعدودات التي وزّعها على من التفوا حول القطار . كانوا يشفقون على سيارة الملك التي لم يعد يرضى أحد ملأها بالبنزين ، يهزأون منها بالأحرى ، ويقلدون صوت الملك الشجي النادم :

ومـن رعى غنمـاً في أرض مسبـغــة
ونــام عنهـا ، تــولّى رعيهـا الأسد »[2]

لم يعرض « نبيل سليمان » معركة « ميسلون » في الجزء الأول ، واكتفى في الجزء الثاني بالإشادة بالبطل « يوسف العظمة » . كما اكتفى بذكر أنباء متفرقة عن العمليات

= مجلد 2 . ص : 2 .

(*1) المقصود بالجنرال هو غوابييه قائد القوات الفرنسية المهاجمة ، الذي دخل دمشق على ظهر حصان ، كما دخلها أيضاً الجنرال « غورو » على عربة . انظر ـ قصة الكفاح الوطني . ص : 259 .

(1) « بنات نعش » . ص : 16 / دخلت القوات الفرنسية إلى دمشق يوم 25 تموز 1920 . انظر « الحركة العربية » . ص : 565 .

(2) « بنات نعش » . ص : 161 / . انسحب الملك فيصل من دمشق بعد معركة ميسلون إلى درعا ، واضطر إلى مغادرتها يوم 1 آب 1920 . انظر : « الحركة العربية » . ص : 565 / وهو لا يملك مالاً ، وأبرق إلى أبيه يطلب منه المال ليتمكن من السفر إلى أوروبا فبعث إليه حوالة بخمسة وعشرين ألف جنيه . انظر « الحركة العربية » . ص : 569 ـ 570 .

التي شنتها مجموعة ثوار حمص على القوافل العسكرية الفرنسية ، حيث أصيب العم « حاتم أبو راسين » برصاص الفرنسيين وفقد فحولته ، ويذكر أثناء عن اجتماعات المؤتمر السوري ، وعن مظاهرات دمشق ، والمؤتمر الفلسطيني ، وبالتركيز على مجرى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أولاهما الروائي عنايته الفنية الشديدة ، من خلال تطوير الحدث الروائي ،وتصوير الشخصيات الفنية والرسمية . فهذه الأمور هي التي مكنت ،موضوعياً، من ضياع الاستقلال والوقوع تحت نير الانتداب .

ثالثاً ـ مقاومة الشعب السوري للاحتلال الفرنسي :

عكست رواية « مدارات الشرق » فنياً أشكالاً متنوعة من مقاومة الشعب السوري للاحتلال الفرنسي وعملائه الداخليين ، من خلال تصوير الشخصيات الفنية والبطولات الجماعية . . وشدّ الروائي ذلك كلّه إلى جوهر الأحداث التاريخية وبنية الواقع الاجتماعي ، دون أن يحفل بأسماء الثورات والانتفاضات والمظاهرات ، والقادة التاريخيين الرسميين ، لكنه احتفل بتصوير الأجواء العامة والخاصة التي حركت الشخصيات الفنية أو تحركت فيها ، وبتصوير أشكال من المقاومة الشعبية والرسمية من خلال تطوير الحدث الروائي ورصد تأثير الأحداث التاريخية في مصير كل شخصية فنية على حدة :

المقاومة الوطنية ضد الفرنسيين والانكليز قبل ميسلون :

أورد الروائي ـ على الطريقة الفنية المتسمة بالاختزال ـ لمحات تاريخية جوهرية دلت على أشكال من المقاومة الشعبية البطولية المتنوعة التي أبداها الشعب السوري في مناهضة الاحتلال الانكليزي والفرنسي لسورية منذ أن وطأت أقدامهم تراب الشام :

صور المظاهرات الشعبية التي ملأت شوارع دمشق ليس بمناسبة الخلاص من النير التركي ، ولا استقبالاً للأمير الحجازي ،بمقدار ما هي تعبير عفويّ عن نهوض

الشعب بعد سنين من الكبت والحرمان والظلم والاستغلال والفقر والاضطهاد والحرب والموت . . لذلك جعل الروائي كل شخصية فنية ترى فيها ما يوافق رغباتها ومصالحها : « . . . اندفع هولو وسط الجموع صعدا . الطرابيش والكوفيات تتطاير سكرى . الأكف تلتهب والحناجر تنشق . إنه واحد من تلك الأيام القادمة التي تحدث عنها العم حاتم ، عالماً علم اليقين أن قومة الشعب وشيكة منتصرة . هكذا جرى في فرنسا منذ عشرات السنين ، هكذا جرى بالأمس القريب في روسيا ، وهكذا سوف يجري في كل أرض يفسدها الظالمون ، وهذا هو صوت العم حاتم يهمس ، لا ، إنه يتردد في كل مكان ، وهولو يتشرب كل كلمة ، يطلقها ملء الفضاء ، وعيناه تلوبان ، والعم حاتم لا يظهر »[1] .

كان« الباشا شكيم » متكتماً عازلاً نفسه في بيته لاجئاً إلى حدس الست « زهرة » باحثاً في طمأنينتها عن سند له ناظراً فيما سيفعل ، و « قبل أن يتأكد من أن الحكومة الجديدة قد قامت في الشام ، كان قد صار يفكر في أن من طوى راية الأربعمائة سنة ليس تلك الملايين (القابعة في جحورها) . ليس هو ولا من يعرف ، وقد تكون لميعه على حق ،قد يكون الانكليز من فعل ، بل قد يكون الخواجة ثابت على حق ، قد يكون الفرنسيون هم أيضاً من فعل[2] . وعندما عجل بالخروج من عزلته بعد أن وصلت الست لميعة مع الانكليز من الجنوب[3] وأعلمته أنه ما فات الوقت لو عجّل ونصّب نفسه مثل غيره فلربما استطاع « بيجيت » وغيره أن يثبتوه[4] ، : « أسعده الزحام والصياح خلاف ما تعوّد . تمعّن في الوجوه التي بدت له فرحة وشامتة ، عكس ما أكد حموه من قلقها وحزنها »[5] ، لقد رأى الباشا الناس ساخطين ، هائجين ، خائفين وفرحين . .

(1) ـ الأشرعة . ص : 78 .
(2) ـ الأشرعة . ص : 112 .
(3) ـ انظر · الأشرعة . ص : 116 .
(4) ـ انظر : « الأشرعة » . ص : 116 .
(5) ـ انظر : « الأشرعة » . ص : 121 .

كما أنه لن يذهب بعيداً إن لم يقرأ الآن سوى الابتهاج . ولكن الباشا لم يكن قد جرّب منذ زمن بعيد السير وسط الحشود ،حتى ندر أن شارك فيها منذ توفي والده »[1] . وكانت السراي تبدو قريبة جداً من موقعه أمام بناية عمه ، ولكن أنّى له أن يصل إليها ،وهذا المدُّ من البشر يفصله عنها ؟ وتمنى أن يحمله واحد من أولاء ، كما يحملون الهتافين ، فقد يصل في غمضة عين . إذن حسْبه الآن أن يسير بمحاذاة أبواب المخازن المغلقة في الطابق الأرضي من بناية عمه ، ويفرح لأن الأتراك قد أخلوها أخيراً بعد أن احتلوها منذ بداية الحرب . أرسل عينيه إلى حديقة السراي فلم يظهر لهما النصب الذي أُركز في وسطها ، علامة على خمس وعشرين سنة من جلوس السلطان على العرش . وَدَّ لو أن هؤلاء الناس يرمون بذلك النصب في النهر ، ثم أشار إلى فلاحي « الحرزة » كي يعينوه في متابعة سيره نحو أوتيل فكتوريا ، وقبيل الأوتيل اختفوا ، ذابوا في الحشد ، وتراءى له أن ثمة عيوناً عديدة تغمز له من نوافذ الأوتيل . ومثلما يقصُد الباشا الأوتيل اليوم للسلام على من فيه قَصَده بالأمس مُسَلِّماً على الحمالين ، أخرج منديله الأبيض المعطر ، ومسح عينيه وجبينه ، ثم مسح وجنتيه ، وراحت يمناه تسوي . . والتفت فاتحاً ذراعيه يهتف : ـ أهلاً مستر بيجيت[2] » .

ازداد يقين « هشام الساجي » مع كل خطوة أن أمراً عظيماً سوف يكون أخيراً هذا اليوم : « الهرج والحركة اللذان شاهد في المرجة ،وقدّر أنهما في السراي ، أنسياه التعب والجوع ، وجعلاه ينخرط في التجمعات الصغيرة والكبيرة التي كانت تقوم فجأة هنا ثم تنتقل فجأة إلى هناك ، أو تضمحل وتفسح لسواها ، ومنذ الظهيرة بَدَا مُنوّماً ، يُسيِّره الإحساس الغامر بأنه يتوّج في هاته السّاعات شهادتَه الكبرى »[3] ، ثم أخذت الدفعات القاسية غير الآبهة ، تتقاذفه نحو المرجة . . وما يدري كيف صار يصرخ مثل الكثيرين . « ربما أصابته عدواهم بالفزع أو الفرح أو الترقب أو الفرار إلى أمان

(1) ـ الأشرعة . ص : 121 ـ 122 .

(2) ـ انظر « الأشرعة » : 122 ـ 123 .

(3) ـ الأشرعة . ص : 105 .

البيت[1] » ، و « ضاع صوت هشام الذي كان يناشد الرسول والإسلام والعرب ومكة والأحرار والشهداء ، وينعي الجوع والحرب ، ولم يَصْحُ مما لَفَّه إلّا بعد أن كان قد خلف المرجة وراءه ، وجعله الصَّمتُ يفطن بغتة إلى أنه كان لأول مرة في حياته هشاماً آخر »[2] .

ثم صوّر الروائي الأجواء العامّة في الشام بعد تلك المظاهرات : « عادت المدينة تهجع باكرة ، ولكن ليس مثلما كانت عليه منذ أيام ، قبل أن يحتلها الأنكليز وتكون لها حكومتها في آن . لقد أخذت مقاهيها وأسواقها لا تخلو من الرواد مع المغيب أو قبله ، بيد أنها لا تزال بالغة العَياء والإعياء[3] فـ « آثار البلوى المديدة الهائلة لا تزال قائمة في كل شأن من شؤون حياتهم »[4] .

أما المظاهرات التي قامت في مدن سورية تعبيراً عن إرادة الشعب فيما يرغبه أمام لجنة « كراين » الدولية ـ الأمريكية ، فقد صورها الروائي من خلال اشتراك « عبد الودود السعد ، وهولو التكلي » فيها ،واختزل رغبة الشعب فيما أطلقه المتظاهرون من هتافات ، فيما فَهِمَهُ عبد الودود وهولو » من الحدث التاريخي ، دون غيرهما مّما سجّل في كتب التاريخ : « كانت اللجنة الأمريكية التي جاءت تستفتي الناس عما يرغبون لبلادهم تشغل عبد الودود وهولو . كانت تختلط لديهما مثل الآخرين الحقيقةُ فيما يعرفون بالشائعات والخيال »[5] و « قبيل الظهر كانا قد وصلا إلى المرجة مخلفين ثناء سليم أفندي ونظرات عمر المازئة »[6] و « ضاعف اندغامهما في الحشد من حماستهما ،وكان من العسير أن يفهم المرء ما يقال »[7] و « انطلق صوت أبح : ـ تسقط فرنسا . فتعالت الأصوات لتردد هتافه ، وانطلق الصوت الذي كان يتحدّث عن القدس : ـ يسقط بلفور . .

(1) ـ الأشرعة . ص : 106 .
(2) « الأشرعة » . ص : 107 .
(3 ، 4) : « الأشرعة » . ص : 125 .
(5 ، 6) « الأشرعة » . ص : 190 .
(7) « الأشرعة » . ص : 191 .

فتعالت الأصوات تردد هتافه ، وتدافع الناس نحو رجل مُسنّ برز على الأكتاف يوقّع هتافه : ـ لا وصاية ولا حماية . . فتعالت الأصوات تردد هتافه ، حتى انطلق صوت آخر من الخلف : ـ أنت سورية بلادي . . أنت عنوان الفخامة ، فأصغى الناس إليه ، لكن الرجل المسن قاطعه : ـ الاستقلال أو الموت . . فتعالت الأصوات تردد هتافه . وكان عبد الودود وهولو يصرخان ما وسعا مرسلين أيديهما في الهواء ، ممتلئين عزماً وحبوراً . كانت الهتافات تبعث في رأسيهما الدوار بإيقاعها الجماعي . كان للإيقاع حنقُه الدفين في صدريهما ، خيبتُه الملتاعة ، شوقُه العارم وقَلَقُه الغامض . كان إيقاعاً بدائياً حاراً يجعل من هذه الأجساد نفوساً مشبوبة ، ومن تلك النفوس أجساداً تنفجر رغبة وعنفاً ، موتاً وحياة ، وكانت الشام كلها تردد الصدى .

بعيد الظهر أخذ الحشد يتراخى ، وبات « عبد الودود وهولو » قادرين على أن يَسمَع كل منهما الصوتَ المبحوح للآخر ، ويسخر منه . وكان على « عبد الودود » أن يعود إلى العمل ، وعلى « هولو » أن يتلهّى كي يمضي ما تبقى من الوقت قبل أن يحلّ موعدُ رحلته ، وهو يُقسم أنه لم يشعر بمثل هذا الجوع منذ كان صغيراً »[1] .

هذا . . ولم يقتصر تصوير الروائي على المظاهرات الشعبية ذات الطابع السياسي العام ، وشمل أيضاً ـ في إطار تأريخه لتنويع المقاومة الشعبية ـ مظاهرات ذات طابع اجتماعي داخلي : فانتقل إلى مظاهرات الغلاء والجوع في « حماه » من خلال « فياض العقدة وعزيز اللباد » الجنديين اللذين رغبا في تناول وجبة غدائهما خارج القشلة : « لم تكن ثمة هتافات . كان فقد الهياج والهرج والشتائم والشكوى . وما كادا يقتربان من الساحة حتى رشقتهما العيون بنظرات غضبى »[2] . ثم تابع الروائي الكشف عن جوهر هذه المظاهر حين أدار حواراً بين الشخصيتين اللتين التقيتا « باساعيل معلا » . . الذي أكمل الفكرة « قال فياض : ـ هذه الحكومة بنت حرام »[3] .

(1) ـ « الأشرعة » . ص : 191 . .
(2) ـ الأشرعة.. ص : 371 .
(3) ـ « الأشرعة » . ص : 372 / لاحظ كيف حذف الروائي همزة وصل ابنة فكتب=

وفكّر عزيز : « لا بد أن أولاء الرجال . . مُحقُّون ، لماذ حبست الحكومة مندوب العمال إذن ؟ لماذا تحشد العساكر في وجه هؤلاء ؟ لماذا تلمع الحراب على شرفة البلدية ؟ ماذا تراه يفعل غداً إنْ أمرته الحكومة بضرب هؤلاء الناس الذي يملؤون الساحة ؟ »[1] ، و « ردّ أبو عاطف متباهياً بالأفواج التي تندفع كل يوم من القرى القريبة ،منذ شاع خبر المظاهرات ضد الغلاء والجوع .أقسم أبو عاطف أن الأفواج ستزيد كل يوم حتى يرى الناس ماذا ستفعل الحكومة ، أقسم أن الناس يتركون الأرض ووعيد الملاكين وَيبكّرون إلى حماه كل صباح ، ولا يغادرونها حتى العصر »[2] .

هكذا . . من خلال تصوير الأجواء العامة والأجواء الخاصة ، ومن خلال تشديد إيقاع الحدث الروائي وتطويره ، ومن التقاط جزئياته المنتشرة عبر عشرات الصفحات ،والفصول المتنوعة ، وتعميم الأخبار . . تمكن الروائي من الكشف ـ للقارىء وللشخصيات الفنية بنسب متفاوتة ـ عن أشكال المقاومة الوطنية التي تنمو بعفوية هنا وهناك لتسير باتجاه تلازم النضال الوطني بالنضال الاجتماعي : « كانت حمص قد هبّت ضد فرنسا الزاحفة المُذِلّة المُهدِّدة ، وضد الحكومة الضعيفة الخانعة . كان البدو من « بني خالد والعمارات والرولا » وسواهم قد اندفعوا إلى الساحات والطرقات . وكان الفلاحون القادمون من الجبل والسهل ، من قرى العلويين والاسماعيليين والدنادرة ، ، قد اندفعوا في اليوم نفسه ، فضاقت حمص بمَنْ فيها وبمَنْ هبَّ إليها . ضاقت بالغبار والهياج والحر ، وضاق هو (المقصود العم « حاتم أبو راسين ») بحياته الجديدة مع نجوم والكلاّسة . ضاق جلده به فقذف نفسه في لُجّة المدينة طوال النهار ،وفي المساء كان أول من لبّى الدعوة إلى الزحف على مواقع الفرنسيين ، وملاقاتهم قبل أن يقتربوا »[3] ، **هكذا يندغم المصير الفردي بالمصير**

= « الحكومة بنت حرام » ليدل على جوهر تركيبها الاجتماعي والتاريخي .

(1) ـ الأشرعة . ص : 373 .

(2) ـ الأشرعة . ص : 375 .

(3) ـ الأشرعة . ص : 429 .

الاجتماعي .

وفي دمشق : « كانت الألسن قد بدأت تلوك مساومات القصر للفرنسيين وربّما لسواهم والحكومة أخذت ترفع الأسعار[1] » وسليم أفندي يصخب مع أبناء الأحياء الشعبية في التدريب على السلاح وفي التطوع ، في الغلاء وفي الكساد ثم في الاضراب .

: « عبد الودود وهولو ، كل منهما كان أكبر اندفاعاً من صاحبه إلى الاضراب »[2] .

وفي تلكلخ : « الدنادرة يحرضون الفلاحين ضد فرنسا خشية أن تفعل هنا مثلما فعلت أو ستفعل في أراضيها نفسها ، إذ وزعتها على الفلاحين »[3] . و « عزيز يتساءل عما جرى حتى جعل من الحكومة في الشام والدنادرة مثل السمن والعسل ؟ وعمّا إن كان العلم العربي[*1] وحده كافياً كي يجعل الفلاحين ينسون الجراح الطرية ، ويسيرون خلف الدنادرة ؟ كان يشك في أن تكون فرنسا توزع الأرض على فلاحيها[*2] هناك وتحرق البيوت هنا ، سواء أكانت للدنادرة أم للفلاحين . وكان بخاصة يحنقه أن يستجيب الفلاحون للحكومة في الشام ، وقد أحرقت بالأمس « مرجمين » فوق رؤوس أهلها ، كرمى لواحد من آغاوات سورية »[4] .

ثم انتقل الروائي من « تلكلخ » إلى حوادث « الحولة » ، ومنها إلى حادثة حوران . . ثم إلى نهب قلعة دمشق .

(1 ـ 2) ـ الأشرعة . ص : 442 .

(3) ـ الأشرعة . ص : 462 .

(4) ـ الأشرعة . ص : 462 .

(* 1) إشارة إلى ثورة الدنادشة ضد الفرنسيين بحجة رفع العلم العربي والفرنسي ، انظر ـ الثورة العربية الكبرى ، مجلد 2 . ص : 108 ـ 111 .

(* 2) إشارة إلى الأسباب الرئيسية التي دفعت الاقطاعيين العرب لمقاومة فرنسا ثم مهادنتها : انظر ، حنا ، عبدالله ، 1987 ـ من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان ط ، دار الأهالي ، دمشق . ص : 8 .

النضال الوطني التحرري للشعب السوري :

عكست رواية « مدارات الشرق فنياً الواقع التاريخي الموضوعي للمجتمع السوري تحت سيطرة الانتداب الفرنسي حتى نهاية العشرينيات ، في إطار النضال الوطني التحرري للشعب السوري :

فعلى الرغم من جميع الاجراءات الاحترازية الاستعمارية التي نفذها الفرنسيون بعد الاحتلال ، وتقسيم سورية إلى دويلات (دولة لبنان الكبير ، ودولة حلب ،ودولة دمشق ، ودولة العلويين ، ودولة الدروز . .) وضع الفرنسيون ثقلهم وتجربتهم الاستعمارية الطويلة لتثبيت الوضع التقسيمي الجديد متكئين في ذلك على زرع الشقاق بين أبناء الوطن الواحد ، مستفيدين من جملة التركيبة الاجتماعية المحلية المتخلفة والمتناقضة ، محاولين ترسيخ هذا الواقع المتخلف على جميع الأصعدة ، فارضين عليه تبعيّة شاملة بهدف إبقائه مجالاً واسعاً لأساليب النهب الاستعمارية القديمة والحديثة معاً ،وحائلاً دون وحدة المجتمع السوري وتكاتف قواه الوطنية التحررية . .على الرغم من ذلك كله . . فقد ردت الجماهير الشعبية على إقامة الانتداب وإجراءته بجملة من الانتفاضات والثورات والحركات السياسية والأحزاب طوال زمان « بنات نعش » تعبيراً عن النضال التحرري الوطني للشعب السوري وتطلعه إلى الحرية والكرامة والسيادة على أرضه ومقدراته المادية والروحية .

ربط « نبيل سليمان » الانتفاضات والثورات السورية والحركة السياسية بالواقع الاجتماعي ونظر إليهما في علاقتهما الجدلية ،ورصد هذه العلاقة من خلال التصوير الفني لسيرورة الواقع الاجتماعي بكل تنوعاته وتناقضاته وإفرازاته وعبر تطوير الحدث الروائي ومتابعة مصائر الشخصيات الفنية . فقدم ـ من خلال « بنات نعش » صورة فنية واقعية متحركة تعكس الواقع المتحرك المتجدد حيث تَمَوْضَعَت على أرضه البنية الاجتماعية الحديثة للمجتمع السوري المعاصر . وبما أن « بنات نعش » ليس الجزء الأخير من الرواية ، قطعاً ، فإن الروائي قدّم من خلال هذا الجزء عرضاً واسعاً لتوزيع القوى الاجتماعية المتنوعة وصوّر مواقعها ومواقفها من النضال الوطني التحرري ، الذي عبّر

عنه الشعب السوري في تجربة الانتفاضات والثورات المسلحة ،وفي نشوء الأحزاب الوطنية والتقدمية :

ـ فرّ « عزيز اللباد » إلى تلكلخ لكنه لم يقتنع بالإقامة فيها لأن ثورة الدنادرة كما رآها سرعان ما تنتهي عندما يُعلَم أن فرنسا سوف لا توزِّع الأرض على الفلاحين كما فعلت في موطنها . لذلك قصد جهات طرابلس ، لكنّ الطريقَ انقطعت به في « سهل عكار » وتلقّفَتْهُ اقطاعية « عبود بك الرشدة »[1] ، أحبَّ « هيلانة » التي حاولت الهرب مع « وردة » ، وسمع من الحارس كيف أمر « عبود بك » بتعريتهما في الطابق العلوي وبأيدي الضباط الفرنسيين لتأديبهما[1] . اتصل « عزيز بالفتاتين ، وأفصح عن حبه « لهيلانة » ورغبته في الزواج منها ، وفي الهرب بها[2] ، لكنه فوجِىء بقتلها فقرّر الانتقام لها ولعذاب الفلاحين الأسطوري على أيدي الاقطاعيين ورجالهم ومنهم « عبود بك الرشدة » عميل الفرنسيين ، وأيقن « عزيز » أن حرباً واحدة إذن لا تكفي : « لا الحرب البعيدة تكفي ولا الحرب القريبة ، لا في العالم المتلاطم ،ولا على الحدود القديمة والجديدة ، ولا بين الأجانب »[3] . نَفَّذ قراره في الليلة التي استضاف فيها « عبود بك الرشدة » أكبر رأس فرنسي ، فقتل « عبود بك »[4] والتحق بالثورة المشتعلة في جبال العلويين[5] . وهناك التقى بـ « حمادي الحسون »[6] وخاضا معارك[7] عدة إلى

(1) ـ انظر « الأشرعة » . ص : 463 .

(1) انظر « الأشرعة » . ص : 469 .

(2) ـ انظر « الأشرعة . ص : 473 .

(3) ـ انظر « الأشرعة » . ص : 483 .

(4) ـ انظر « بنات نعش » ص : 12 ـ 13 .

(5) ـ انظر « بنات نعش » ص : 168 / إشارة إلى ثورة الشيخ صالح العلي والثورات الأخرى في جبال العلويين ، من 1918 ـ 1921 . انظر « قصة الكفاح الوطني في سورية » ص : 23 ـ 55 .

(6) انظر « بنات نعش » . ص : 171 .

(7) انظر « بنات نعش » ص : 169 ـ 170 .

أن آلت الثورة إلى الفشل[1] ، فافترقا من جديد حيث قصد « عزيز » مناطق شمالي اللاذقية ، وحيث أصيب « حمادي الحسون » بطلق ناري .

ويوحي الروائي بأن أسباب فشل الثورة يكمن في اتفاق الفرنسيين مع[2] الأتراك ، وفي محاولة الفرنسيين زرع الاستقلالية في نفوس العلويين حين أشار إلى « أن الطائرات التي تحوم فوق الجبل وترمي بالمناشير قد قالت محذرة ومنذرة : انتبهوا أيها العلويون لمصالحكم . وقد أخذ بعض الثوار يعودون إلى بيوتهم ، بل إن الخيارَ باتَ للجميع من يريد أن ينسحب فلينسحب »[3] وعيّن الفرنسيون « ابن الدبّاس » في المجلس البلدي الذي يحكم دولة العلويين منذ أسسوها »[4] .

تابع الروائي كشف الواقع التاريخي وأحداثه من خلال حركة « عزيز اللباد » من قرية ومن إقطاعي في شمالي اللاذقية إلى إقطاعي آخر ، فأينما ولّى وجهه ثمة إقطاعي مُوَال للفرنسيين ، مُسلم أو مسيحي ، عربي أو تركي أو أرمني ، ظُلْمُه أكثر أو أقل . لكن الجميع متساوون في استغلال الفلاحين ونهبهم وتشريدهم[5] وإذلالهم . تعرّف أبا « وليف كيروز » الذي يعمل بائعاً متجولاً في منطقة شمال غرب سورية كلها ، ونقل « أبو وليف » لعزيز ، أولاً بأول ، أخبار هذه المنطقة وحوادثها : « في كل بيت نزل فيه « أبو وليف » منذ غادر انطاكية كان لسانه يحرص على ألا تفوته الإشارة إلى ما سمعه في حلب قبل أن يغادرها .قال لعزيز :

(1) انظر « بنات نعش » . ص : 178 .

(2) انظر « بنات نعش » . ص : 178 . / إشارة إلى اتفاق الأتراك مع الفرنسيين في 30 / 7 / 1920 نص الاتفاق موجود في « الثورة العربية الكبرى » مجلد 2 . ص 153 . لقد مكّن الاتفاق من نقل نحو / 50 / ألف جندي من الشمال إلى مناطق اسكندرونة وجبال العلويين والساحل السوري اللبناني .

(3) ـ « بنات نعش » . ص : 178 .

(4) ـ « بنات نعش » . ص : 179 .

(5) ـ انظر «بنات نعش » . ص : 252 ـ 253 .

ـ قائد الثورة في انطاكية(*) سوف يصبح رئيساً للشام كلها ، وربما ملكاً عليها .

ومثلما هلّل الكثيرون لإشارة البائع فعل عزيز ، إلّا أن الرجل أردف كما فعل مراراً من قبل ،وكأنما يظفر بصيد :

ـ إذن أنت لا تعرف أنه تصالح مع فرنسا ، بعدما حكمت عليه بالإعدام . الناس تقول : « فرنسا تكافىء العاقل بالرئاسة ، وربما التاج على ما قدم ، فلولا انسحابه لصعب عليها أن تطفيء النار اللاهبة في كل هذا الشمال وكل هذا الغرب من سورية »[1] . ثم يقوِّم « أبو وليف » الذي تقمصه الروائي فيما يبدو الثورات السورية كلها مجيباً على سؤال عثمان : « دلّني على ثورة من ثوراتنا هذه كلها قادها واحد مثلي أو مثل عمك عزيز ؟ من جبال العلويين إلى انطاكية إلى حلب إلى قلب تركيا من آغا إلى شيخ إلى . . .[2] » ثم أن الكماليين « نفضوا يدهم ،وما راحت إلاّ على شبابنا ، كثير من شبابنا ماتوا من أجلهم ، من مرعش إلى عنتاب وغيرها ،أمّاهم فماذاقدموا لنا ؟ قطعة سلاح ؟ خرقة عليها العلم التركي وفي قفاها العلم العربي . ومطرزة ـ الصلاة على النبي ـ بكلام جميل : إنما المؤمنون أخوة . . . هذه هي المساعدة وأخوّة المؤمنين تكون بالمقايضة علينا مع فرنسا ؟[3] .

وراح البائع يتحدث بحياء وإلغاز عمّا كان يُقدَّم للثوار في انطاكية(*1) ، وفي

(1) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 255 .

(*) ـ إشارة إلى « صبحي بركات » الذي رأس الحكومة السورية الاتحادية (حلب والعلويين ودمشق) من 29 حزيران 1922 إلى 1 / 1 / 1925 ، ثم رأس الوزارة بعد إعلان دستور الدولة العربية السورية من 1 / 1 / 1925 ـ 21 / 12 / 1925 ، انظر قصة الكفاح الوطني في سورية ، ص : 288 .

(2) ـ « بنات نعش » . ص : 255 .

(3) ـ « بنات نعش » . ص : 256 .

(* 1) ـ إشارة إلى ثورة انطاكية / كان الفرنسيون قد وصلوا إلى ساحل اسكندرون قبل أن يحتلوا دمشق ، فانحدروا منها إلى انطاكية ، ونشبت معركة في مرفأ السويدية بين أبناء =

الحفة[*1] ، وهو ينتقل خلف حماره الأبيض من مكان إلى مكان[1] . ورأى « عزيز » أن « كل ما في هذه البلاد لا ينبغي أن يدوم طويلاً ، فالدوام للحي القيوم وحده ، والثوار ينبغي أن يعودوا ثانية وثالثة وعاشرة حتى تطرد فرنسا »[2] ، ورأى « أبو وليف » أن هناك شبهاً في غدر الأتراك بالعرب مع الفرنسيين وغدر الفرنسيين بالأرمن مع الأتراك عندما شجعوهم لإقامة حكومة لهم في أضنة استمرت ساعة واحدة[*1] .

قرر « عزيز » الهرب إلى حلب بعد أن اشتدت ملاحقة الإقطاعيين والفرنسيين له ، ليعمل مع « وليف » في مصبنة الأستاذ « فخري القجي » أحد زعماء الحركة الاشتراكية[3] في حلب ، وكان الأستاذ على علاقة بالبلاشفة الكماليين . قال « وليف » لعزيز : « بين الكماليين ياأخي بلاشفة . أصدقاء الأستاذ فخري بين الكماليين أكثرهم من البلاشفة ، خاصة في السنتين الأخيرتين ، الكماليون كما قال والدي اتفقوا مع فرنسا وتركونا وحدنا في وجهها ، وعاد الأرمن يهاجرون من جديد إلى حلب ويمكن إلى غيرها ، صدّقْ أن كثيراً منهم جاءوا إلى الأستاذ فخري وإلى غيره ينصحون : لا تتهوروا . . لا تتعجلوا . . فهمت ياعزيز ؟ يعني مقاتلة فرنسا صارت تهوراً ، والمطالبة بالاستقلال صارت عجلة ! وبالمقابل جاؤوا يحرضوننا على الانكليز . لماذا ؟ لأنهم يحتلون استنبول ويدعمون اليونان . طيب وبلادنا ياأخي ؟ حتى إلى ذقوننا وصلت

= الشعب هناك بقيادة صبحي بركات وأخيه ثريا وقريبهما عاصم وحقي دادة . ودارت معارك عديدة عجز الفرنسيون عن التصدي للثوار فمال الفرنسيون لاستمالة قادة الثورة ، وخاصة بعد أن وقعوا اتفاقاً مع تركيا وانسحب صبحي بركات وأخوه وأقاربه من قيادة الثورة ، ونظم الثوار صفوفهم بقيادة المجاهد يوسف السعدون . انظر « قصة الكفاح الوطني في سورية » ص : 56 ـ 57 .

(*1) إشارة إلى ثورة « الحفة » جبل صهيون في قضاء « بابنا » بزعامة عمر البيطار ، انظر « قصة الكفاح الوطني في سورية » ص : 27 ـ 28 .

(1 ـ 2) ـ بنات نعش ، ص 257

(3) انظر « بنات نعش » . ص : 278 .

النار ، وصار الكماليون يطالبون فرنسا بأرضنا . ما كفاهم كل ما أخذوا بعد رسم الحدود بيننا وبينهم . تَصدِّقُ ياعزيز ؟ بيت عمك « كيروز(*) » مثلاً يريدونه ؟ »[1]

أمّا الأستاذ « فخري » فهو يخشى أن لا تقوم للشام قائمة قبل أن يكون قد غادر الدنيا : « عمري ما رأيته قلِقاً أو خائفاً إلاّ في هذه الأيام . الثورات التي قامت ضد فرنسا من طرف الشام إلى طرفها . انطفأت واحدة بعد الثانية ، ما بقي غير الشرارة الأخيرة ، ليس لنا أمل بعد اليوم الاّ بمن بين الكماليين من البلاشفة .

- الأمل بالله . الأمل فينا ياوليف .

قال عزيز مكابراً ، فتابع وليف غير آبه :

- صحيح ياأخي ، ولكن نسيت أنك بحاجة لمن يقف معك ؟ البلاشفة قلّة بين الكماليين ، صحيح ولكن وراءهم ثورة هزت العالم ، ثورة دكت القصر على رأس القيصر . ومن تظن قام بها ؟ مثلي ومثلك ومثل الأستاذ فخري . . عساكر وعمال وفلاحون وأساتذة ، يبنون بلادهم اليوم بلا ظلم ، بلا قيصر . والبلاشفة ياعزيز يمدون يدهم إلى المظلومين والفقراء . الأنياب تتكالب على ثورتهم . الدول ضدها ، وهي ، ياخوفي ، لا زالت فتية ، فهل تقدِرُ أن تقدِّم لنا شيئاً ؟ »[2] .

تأثر عزيز بوليف وبات يردد خلفه متلعثماً : ياعمال العالم وياأيتها الشعوب المضطهدة اتحدوا ، ويفكر في هذا النداء الذي قال وليف إن البلاشفة قد أطلقوه في « باكو » وسموه بنداء الجهاد المقدس[3] .

كما كشف « نبيل سليمان » عن تاريخ تشكيل الأحزاب السياسية في حلب وتشكيل المجموعات الاشتراكية الشيوعية عن طريق التأثر بالشيوعيين الأتراك من خلال حياة « عزيز ووليف » وعمّال المصبَّنةِ وغيرهم ، قال وليف : « الكلمة أمانة .

(1) - « بنات نعش » . ص : 286 .

(2) - « بنات نعش » . ص : 287 .

(3) - « بنات نعش » . ص : 288 .

(*) - إشارة إلى لواء اسكندرون وأطماع تركيا فيه .

البلاشفة لولا حزبهم كانوا فاشوش ، نحن نحاول ، وهذا ما بين الأستاذ فخري وبعض الكماليين ، البلاشفة منهم يساعدوننا ، نحن نحاول ولو كان ما في شيء واضح . الأستاذ لا يقبل مني هذا الكلام . هل تقبل أنت بحزب تركي بلشفي عندنا ؟ لماذا ؟ ماذا ينقصنا ؟ صحيح البلشفي رفيق البلشفي أينما كان ولكن هل نعمل كما عمل غيرنا ؟

ـ ماذا عمل غيرنا ؟

ـ جماعة عملت الحزب الثوري الوطني هنا في حلب ، نعم ، حزب تركي ، هو ضد الفرنسيين ، عظيم ، ولكن مع الانكليز . طز »[1] .

وكشف عن موقف التجار في حلب من الاتفاقية التركية الفرنسية « تجّار حلب فرحوا باتفاق الكماليين مع فرنسا ، المسيحي مثل المسلم منهم ، فرح ، لأن سوق الأناضول فتحت من جديد »[2] . وعن الصحف الشيوعية التي كانت تتسرب من تركيا وفرنسا إلى حلب ورصد تأثيراتها . ثم أطْلع وليفٌ « عزيزاً » على نشرات سياسية وصحف منها : « ـ كانج كومونست يعني الشاب البلشفي ، أو الشاب الشيوعي » و « أنترناسيونال روج » و « انترناسيونال كومنست » وحدثه عن لصْقِ أوراق صغيرة على الحيطان وعلى أبواب[3] الفرنسيين ، وفي عيد العمال . . . سأل « عزيز » ماذا كان في الورقة ؟ قال وليف : « ـ الورقة التي علقتها كان في أولها ياأهل حلب ، وفي آخرها لينين ، وكل كلمة فيها تدعونا لنقاوم فرنسا بالبلشفية ، الورقة الثانية الصغيرة كانت ضد الانكليز ، هذه الورقة ياعزيز دوّخت الملك نفسه ، فجاء إلى حلب يخطب ضد البلاشفة ، أنا سمعته بنفسي ، وإن كنت أفهم ولا أفهم . كانت فرنسا على الباب وهو يخطب فينا ضد الخطر البلشفي الذي نط فوق الحدود التركية ، والأستاذ قال : إن الملك أرسل نسخة من هذه الورقة إلى الانكليز حتى يؤخزوا فرنسا عنه ، ويتصدى هو

(1) ـ « بنات نعش » . ص : 289 ـ 290 .
(2) ـ « بنات نعش » . ص : 290 .
(3) ـ « بنات نعش » . ص : 292 .

للبلاشفة »[1] .

وعرف « عزيز » و « القارىء » ، من « جمعة الختيار » وغيره من العمال الذين شعر بينهم بلُحْمَةٍ إنسانية[2] ، أن فيصل قد نُصِّب على عرش العراق قال أحدهم : « ـ حتى لا تبرد قفا الملك نَصَّبوه على عرش بغداد .

علت قهقة بعضهم ، وقال عزيز :

ـ كما نصبوه أمس يرمونه غداً في البحر .

قال جمعة الختيار :

ـ في دجلة ياعزيز .

قال وليف :

ـ لا تختلفوا ، المهم زمن العرش ولى »[3] .

ولمّا داهم الفرنسيون المصبنة ، واعتقلوا « وليف » وأغلقوا المصبنة ، فرّ « عزيز » إلى حمص ، ليشارك في الثورة السورية الكبرى التي امتدت إليها ، ووجدَ في حمص تنظيماً بلشفياً بدأ من خط آخر هو خط بيروت التي تأسس فيها حزب الشعب اللبناني[*1] . اطّلع « عزيز » على الجريدة التي أصدرها الحزب باسم « الإنسانية »[*2] .

(1) بنات نعش . ص : 293 .

(2) ـ « بنات نعش » . ص : 281 .

(3) بنات نعش . ص : 298 ـ 299 .

(* 1) تأسس حزب الشعب اللبناني يوم 24 / ت1 / 1924 ، وهو نفسه الحزب الشيوعي في لبنان وسورية . في منطقة « الحدث » ضاحية في بيروت . أسسه أربعة أعضاء هم « يوسف ابراهيم يازبك » (مثقف كادح) و « فؤاد الشمالي » (عامل) و « فريد طعمة » (عامل) و « الياس قشعمي » (عامل) ، ثم انضم إليهم بعد أيام « بطرس حشيمة » (عامل) . انظر : دكروب ، محمد ، 1984 ـ جذور السنديانة الحمراء . ط 2 ، دار الفارابي ـ بيروت . ص : 17 .

(* 2) الإنسانية : جريدة لحزب الشعب اللبناني ، صدر العدد الأول منها في 15 أيار 1925 . أنشأها : يوسف ابراهيم يازبك . ـ في الصفحة الأولى ، وفوق اسم =

كانت تُطْبع في « زحلة » ، وقد جاء بها عامل السكك الحديدية « بديع الطارة » ، وحدّث « نظمي بدير » عن الحزب ، وجاء ، أيضاً ، بكتاب اسمه « الدولة والثورة »(*1) وقال له إنه سرقه من قريب له في مصر . وأعطاه بياناً(*2) لحزب الشعب اللبناني يؤيد الثورة السورية في مناطق حوران ، وجبل الدروز(1) .

= الجريدة وشعارها ، هذا السطر : « الإنسانية » هي جريدتك أيها العامل ، فاقرأها واعطها لغيرك ليقرأها .

ـ ثم فوق الاسم مباشرة : « اتحدوا أيها العمال » .

ـ تحت اسم « الإنسانية » نقرأ : « صحيفة أسبوعية أنشئت خصيصاً لخدمة العمال والفلاحين والمدافعة عن حقوقهم وتنظيم صفوفهم » .

ـ إلى يسار الاسم نقرأ : « الإنسانية » للفقير على الغني ، وللعامل على الرأسمالي .

هذه الشعارات بقيت كما هي ، وفي مكانها ، حتى آخر عدد صدر من « الإنسانية » .

انظر نفسه ص : 261 ـ 262 . وقد أصدر المفوض السامي الفرنسي « ساراي » في 17 حزيران 1925 قراراً بإقفال « الإنسانية » إلى أجل غير مسمى ، قبل أن يصدر العدد السادس منها . وجاء في نص القرار : نظراً لأن صحيفة « الإنسانية » الصادرة في بيروت قد نشرت في عددها الصادر في 15 حزيران 1925 مقالاً تقول فيه « بما أن السِّرْدَار قدْ اغتيل بدوافع سياسية فمن « الظلم » معاقبة قاتليه » نظراً لأن هذا المقال في جملته يشكل تحريضاً غير مباشر على الاغتيال السياسي ، وبعد اقتراح السكرتير العام يقرر : المادة الأولى : تغلق صحيفة « الإنسانية » الصادرة في بيروت . انظر ـ نفسه . ص : 284 .

(1) ـ بنات نعش . ص : 402 .

(* 1) ـ صدر كتاب « لينين » « الدولة والثورة » في مصر سنة 1922 بعنوان مغاير للأصل على الشكل التالي :

مذكرات لينين

عن الحروب الأوربية ماضيها وحاضرها

تأليف

ف . لينين =

وطّد « عزيز » علاقته مع الثوار في حمص ، ومع « نظمي بدير » الذي طرح رأيه في قضية الأحزاب قال لعزيز : « ـ كم سنة مضت على فرنسا في بلدنا ؟ ما تركها الفلاحون ، حتى البدو ، ما تركوها يوماً ترتاح ، لا أحزاب ولا هم يحزنون . هذه ـ حمص قدامك . كل يوم حزب جديد . . . »[1] وقال له ، أيضاً : « ـ قرحان النقشة يرى أن ثوراتنا فشلت لأنها بعيدة ، لأنها ما قامت في المدن »[2] ردّ « عزيز » :

« ـ لا تؤاخذني يجوز معه الحق .

ـ لا ياعزيز . لا أنت ولا هو على حق . لو كان للثورات رؤوس غير تلك الرؤوس كانت النتيجة غير ما رأينا حتى اليوم .

ـ هنا صحيح . ولكن اليد الواحدة لا تصفّق . الكثرة خير وبركة . والقل ذل »[3] . هكذا دلّ « عزيز » من خلال وعيه العفوي على ضرورة ضم نضال الفلاحين إلى نضال الطبقة العاملة الناشئة في المدن والطلاب والحرفيين وأبناء الأحياء الشعبية والوطنيين كافة .

وعندما قرأ « عزيز » جريدة « الإنسانية » اختلطت عليه كلمات الشعار الذي يتوّج الجريدة بالشعار الذي حفظه من مؤتمر « باكو »[4]

= رئيس الجمهورية الروسية

عربها عن الفرنسية

أحمد رفعت

مصر 1922 / انظر ـ من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان . ص : 174 .

(* 2) ـ صدر هذا البيان عن اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في لبنان وسورية ، بتاريخ 22 تموز 1925 ، ودعا إلى دعم الثورة السورية بكل ما لدى الحزب من إمكانات بما فيها السعي لدى الحركة الشيوعية العالمية لتنسيق وسائل دعم الثورة . انظر ـ جذور السنديانة الحمراء . ص : 455 .

(1 ـ 3) ـ بنات نعش . ص : 402 .

(4) ـ بنات نعش . ص : 404 / عقد مؤتمر باكو « المؤتمر الأول لشعوب الشرق » من 1 إلى 8 أيلول 1920 . بدعوة من الأممية الشيوعية ، حضره مندوبون من الشرق=

ثم وصلت أخبار ثورة « حماه » إلى « عزيز » والمناضلين في حمص ، فأكبروا استيلاء الثوار فيها على « السراي » ولو لساعة واحدة[1] ، ثم انخرط « عزيز » في أعمال ثورة حمص ، ولما انتهت الثورة ذهب مع « نجوم الصوان » إلى بيروت لجلب اختها « ترياق » من بيت الخواجة « ثابت » وبمساعدة « بديع الطارة » . أُلقي عليهما القبض ونُفيا إلى « الرقة » ، ثم قَتَل الثوار ، بعد ذلك ، « فياض » العقدة .

كشف نبيل سليمان تاريخ تشكيل الطبقة العاملة السورية (سورية الطبيعية) وتاريخ نضالها المطلبي والسياسي والوطني من خلال متابعته لمصير الشخصيات الفنية العمالية الرئيسية في الرواية (العم حاتم أبو راسين كجيل أول ، وهولو ، وبديع

= العربي ، وأذاع نداء « إلى شعوب الشرق » جاء فيه : إن شعوب الشرق قد عانت طويلاً من الاستكانة والجهل تحت نير الحكام والطغاة المحليين ، وتحت نير الغزاة والرأسماليين الأجانب . وهاهي تنفض عنها سبات قرون عديدة وتقف منتصبة متحدية . انظر ـ 1972 ـ المؤتمر الأول لشعوب الشرق . تر : فؤاد طرابلسي ، دار الطليعة ـ بيروت . ص : 246 .

أراد الروائي أن يشير إلى أن جريدة « الإنسانية » لم تُفِد من مضمون شعار باكو « ياعمال العالم ويا أيتها الشعوب المضطهدة اتحدوا » وأن الشيوعيين في لبنان وسورية قصروا عن فهم مضمون الشعار الذي يدعو إلى الاهتمام الخاص بأوضاع بلدهم ، بوصفها بلداً مضطهداً وواقعاً تحت نير الاستعمار مباشرة . بل أنهم كانوا تقليديين في طرح شعار « ياعمال العالم اتحدوا » وكأنهم يعيشون في بلد أوربي .

(1) انظر ـ بنات نعش . ص : 404 / بدأت ثورة حماه بقيادة « فوزي القاوقجي » يوم الأحد 4 / ت1 / 1925 . وسيطر الثوار على السراي بعد منتصف الليل وخرجوا منها بعد ظهر يوم 5 / ت1 / انظر ـ الثورة العربية الكبرى . مجلد2 ، جـ1 . ص : 327 ـ 328 . / وانظر ـ قصة الكفاح الوطني في سورية . ص : 195 ـ 196 .

(2) انظر ـ بنات نعش . ص : 405 ـ 406 / بدأت ثورة حمص في نيسان 1926 . انظر قصة الكفاح الوطني في سورية . ص : 199 .

الطارة ، كجيل ثان) لأنه في سياق نضال التحرر الوطني أخذت تنضج قوى الطبقة العاملة الفتية في سورية ولبنان . وفي 1920 ، قام العمال في بيروت وفي غيرها من المدن بسلسلة من الاضرابات ، وأسست اللجان العمالية . ولقد أقلقت هذه النضالات البروليتارية الأولى المستعمرين الفرنسيين إلى حد أنهم بادروا إلى تأليف حزب عمالي مزيف أسموه بحزب العمال العام في لبنان الكبير ، وذلك سعياً منهم إلى شقّ صفوف الحركة البروليتارية الناشئة في البلد وقد ألحق هذا الحزب ضرراً كبيراً بالحركة العمالية .

وفي 1922 ، اشترك العمال بنشاط في مظاهرات دمشق[1]. وفي 1924 نشأت في لبنان جماعات شيوعية »[2] سرعان ما امتدت إلى سورية »[3] .

العم حاتم أبو راسين :

بغض النظر عن الدلالات الفنية والرمزية التي قد يفضي التحليل النقدي لشخصية « العم حاتم أبو راسين » إليها ، يمكن اعتباره نموذجاً فنياً يمثل الجيل الأول من الطبقة العاملة السورية الناشئة بحكم تنفيذ مشاريع الامتيازات الأوربية في البلدان الواقعة تحت سيطرة السلطنة العثمانية ، وبخاصة منها امتيازات مدّ الخطوط الحديدية التي ربطت المدن التركية والسورية والعراقية والحجازية بشبكة المواصلات الأوربية .

على هذه الأرضية التاريخية يمكن اعتبار شخصية « العم حاتم أبو راسين » انعكاساً فنياً للانقلاب التاريخي ـ أو المنعطف التاريخي الرئيسي الأول ـ الذي حدث في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، سواء على المستوى العالمي (العامل الموضوعي) أم على المستوى الاقليمي (البلدان الواقعة تحت السيطرة العثمانية ـ التركية

(1) انظر ـ بنات نعش . ص : 547 .
(2) انظر ـ مجموعة من المؤلفين السوفييت ، 1975 ـ تاريخ الأقطار العربية المعاصر . ط . جـ 1 ـ دار التقدم ـ موسكو . ص : 86 / وانظر . جذور السنديانة الحمراء ، ص : 29 .
(3) انظر ـ نفسه . ص : 10 ـ 15 / المقدمة .

أو العامل الذاتي) . وعلى صعيد المقاربة التاريخية لرواية « مدارات الشرق » والمرحلة التاريخية التي تعكسها فنياً يعني : تشكل المجتمع السوري الحديث ، ولعل الإضاءة التي يلقيها تحليل دلالة اسم « العم حاتم أبو راسين » تكشف أن « العم حاتم » يرمز إلى الأصالة الإنسانية العربية والتربوية ، و« أبو راسين » يرمز إلى العَالِم بأحوال القرنين ، و « حاتم » قد يرمز إلى حتمية التطور والتضحية من أجلها ولعل النتائج التي يخلص إليها التحليل الفني التاريخي للمرحلة التاريخية التي عاشتها شخصية « العم حاتم أبو راسين » الفنية تكشف عما ورَد أعلاه في هذه المقدمة :

يرتد زمن « العم حاتم » عن « زمان رواية مدارات الشرق » ثلاثين سنة[1] ، أيام كان شاباً قوياً جميلاً » يمكنه أن يؤدي أعمالاً لا حصر لها[2] ، يُصلّح البوابير والأحذية المهترئة ، يرافق مبيض النحاس[3] ، يخدم في الخانات[4] ، ثم يَخْلو له أن يبحث بخاصة عن عابر سبيل إلى الموصل ، أو إلى أرض أبعد نحو الجنوب أو الشرق فيعمل للعابر دليلاً[*1] وخادماً وهو الجاهل بتلك الأنحاء ، ولكن ما همّ ، فالعابر يدفع مالا يُحَصِّلُه ذلك الشاب خلال الشتاء بكامله ، فضلاً عن أن النفس الفتية لم تعد تصبر على ضيقها[*2] ، ولم يعد قادراً على أن يلجمها عن الأمداء الفسيحة التي ينفتح عليها ، إلى سائر الجهات ، ذلك المكان[*3] النكرة المَنْسي الذي نشأ فيه في أقصى ملتقى الشرق

(1) عندما بدأ زمان الرواية كان عمر العم حاتم حوالي خمسين سنة / انظر : الأشرعة . ص : 78 و 81 .

(2) لأن العم حاتم من أبناء البلدات وليس فلاحاً .

(3) أنواع الأعمال التي يجيدها أبناء البلدات والمدن .

(4) لاحظ وجود الخانات يدل على أن العم حاتم قد ربّي في بلدة كبيرة وقد تكون مركزاً أو محطة تجارية .

(* 1) لاحظ تطور الإيقاع في السياق من الخانات إلى الدليل .

(* 2) إشارة إلى واقع البطالة والأزمة وضرورة الخروج منها والانفتاح الحتمي على العالم الخارجي .

(* 3) قد يكون المكان المقصود « بلدة تابعة للموصل بدليل ذكر الموصل في المقبوس =

بالشمال من الشام »[1] .

ذات مرة عمل « العم حاتم » دليلاً لشاب هارب من الأتراك من استنبول إلى بغداد ، وعَبَر بمَنْ يقودُ مضاربَ شتى « بعضها لشمّر وبعضها للفدعان والعقيدات وربما الجبور »[2] وفي العودة كان « حاتم » وحيداً « عبر مضارب أخرى للديلم والعمارات وربما لسواهما ، يتأمل بِبَلَهٍ البدوياتِ وهنَّ يدَخِّنَّ التبغ ، يتناول بحبور العشاء ، يُخلط على ضفاف الخابور الخبزُ والسمنُ بالعصيدة بماء النهر ، وتَطلعُ أرمنيات كثيرات وفاتنات من اللواتي يخدمْنَ خيام الأمير ، ويَصهل الشابُّ كالحصان ، يظل يصهل حتى تتقوض الخيام في الصباح الباكر والرجال ينيخون الإبل ، يحمِّلونها وينطلقون »[3] . وسار « حاتم » مع القافلة ، خلف الفرسان ، وسط الأعشاب والزهور ، حتى المستقر الجديد ، ورأى الخيام تنتصب ، والخرفان تُذبح ، والرجال والنساء . معاً ، يرقصون في حفلة واسعة ، يزينون الأرض كما تزين النجوم السماء ، وعاوده الصهيل ، أنساه الخطر والتعب ، وأضل طريقه من بعد ، مرة تلو المرة »[4] ونَفَدَ زاده منذ يوم أو يومين ، كان الجوع والإعياء يشدانه إلى الأرض حين أنقذه الفرسان المرافقين للشيخة « حربة » وخادمتها الأرمنية « شمّا » . ونُقِل « حاتم » إلى منزل الشيخ الذي جاء من بَشّره بأن ابنه الطالب في استنبول قد نجح[5] فهزج « في العم حاتم : ـ أهلاً بوجه الخير .

زوّجوه من « شمّا » وأَخْلَتِ الشيخة فراشها لها ليلة الزفاف ، وأعادوا له بدل الليرة الذهبية التي أخذها الرعاة منه ليرتين ، وزوّده الشيخ بكتاب لابنه في استنبول التي

= وقد تكون الموصل . وعندها يحمل المكان دلالة تاريخية تشير إلى أن الموصل بلدة شامية كما هو معروف تاريخياً .

(1) ـ الأشرعة . ص : 402 .

(2 ـ 4) ـ الأشرعة . ص : 403 .

(5) ـ أنظر الأشرعة . ص 404 .

قد يقصدها[1] « العم حاتم » مع زوجته الأرمنية « شمّا » ليعمل فيها ويغيّر نمط حياته الأولى .

في الطريق ، أثناء استراحتهما عند أحد الغدران ، خرج لهما الفرسان الأتراك ، ذبحوا « شما » ، واستولوا على ما معه وأوثقوه ، ودفعوه طالبين منه أن يَجري دون أن ينظر خلفه ، و « حين جرؤ أن يلتفت إلى الوراء كانت الشمس قد غابت . كان قد نأى عن الغدير والذبيحة . ولم يُجدِه أن يعود ويبحث عنهما طوال الليل وهو مُوَثَّق »[2] . لم يُعرِّج « حاتم » على أهله ، كان يسير دون أن يدري إلى « استنبول » . وظل عاجزاً عن النطق حتى وصل إلى « ديار بكر » ، وأثناء طريقه إليها وإقامته فيها ، رأى « العم حاتم » مأساة الأرمن[3] ، ومذابحهم ، في مشاهد تفتت الصخر الأصم ، إنها حكايات قطعان من البشر تَطْلُع من مكان إلى آخر ، بعضها يحرسها الدرك ، وبعضها سائب هائم . . وليست هذه هي المرة الأولى التي تشهد فيها هذه الأرض ما تشهد : « منذ عشر سنوات أو عشرين كانت قوافل الشركس واليوم قوافل الأرمن »[4] .

بفضل قضيبه استطاع « العم حاتمْ أن يحافظ على عنقه ، ومن ديار بكر قصد استنبول لاقاه « ابن الشيخ » مثلما لاقاه أبوه الشيخ من قبل ، يَسَّر لـ « العم حاتم » عملاً في محطة القطار ،وغرفة يأوي إليها عند الحاجة ، وزوّده ببعض الأمتعة ، وبثلاث مجيديات . وآلى « العم حاتم » على نفسه « أن يلتقي بذلك الشاب ، بالشيخة حربة ، بالشيخ نفسه إن كان لا يزال حياً ، لا ينبغي « للعم حاتم » أن يموت دون ذلك »[5] . وكاد أن يفي بعهده عندما فرّ من عمله في القطار أثناء الحرب الأولى ، لكنه انشغل بالحرب وعاد إلى الشام ثم استقر في حمص ، كما آلى على نفسه أن يُقدِّم المساعدة والحب أو أن يتضامن مع كل أرمنية أو شركسية ، مع كل إنسان[6] مذبوح ، وأن يعمل ما بوسعه ضد الظلم ، وانصرف يناضل من أجل رحيل الأرتراك .

(1) ـ انظر ـ الأشرعة . ص : 405 .
(2 ـ 4) ـ الأشرعة . ص : 406 .
(5 ـ 6) ـ انظر ـ الأشرعة . ص : 408 .

هكذا تراكمت في نفس « العم حاتم » وانعكست فيها معاناة الناس المقهورين والمشردين والمذبوحين في مدارات الشرق ، ومن مختلف القوميات ، قبل أن يصبح عاملاً في محطة القطار . لذلك يمكن اعتباره رمزاً ، وانعكاساً فنياً لمعاناة الإنسان المقهور في المجتمع الاستبدادي الشرقي المتطلع إلى الحرية والتقدم .

و « كان المنعطف الجديد الحاسم في وعيه حين شارك في إضراب عمال السكك الحديدية ، سنة الانقلاب الأول في استنبول[1] » حيث طالب العمال بزيادة الأجور ودفعها في موعدها وبتقصير يوم العمل إلى عشر ساعات ،وعطلة عيد الميلاد ، وراحة خمسة عشر يوماً في العام مدفوعة الأجر . . في معمعان النضال الطبقي صرخ « العم حاتم » مع رفاقه العمال الذين انتزعوه من الحدود الذاتية الموحشة لعالمه ، وفضحوا له تلك الحدود ورموه خارجها . وفي معمعان النضال الوطني التحرري للشعب العربي ضد الاستعمار التركي ،نما وعيه السياسي القومي ، لذلك كان من أوائل الثوار الذي قاتلوا الفرنسيين قبل أن يحتلوا حمص . واستشهد ، بعد أن ربّى في مدرسته الطبقية السياسية والقومية التحررية « هولو » النموذج الفني للجيل الثاني من الطبقة العاملة السورية ووصل بينه وبين الفلاحين « حمادي الحسون » ، و « اسماعيل معلا » و « عزيز اللباد » . وبعد أن كافأته « نجوم الصوان » بحبها وعرفانها . . .

هولو التكلي :

كشف نبيل سليمان ، من خلال تصوير حياة « هولو » وتتبع مصيره ،تاريخ تشكيل الطبقة العاملة في سورية وتأصيلها ، في جيلها الثاني :

(1) ـ « الأشرعة » . ص : 409 / يعتبر الانقلاب العثماني الأول 1908 انقلابا للقوى البرجوازية الصاعدة في البلدان الواقعة تحت السيطرة العثمانية بعامة والتركية بخاصة / انظر إضراب عمال السكك الحديدية في : رزق سلوم ،زفيق ، 1912 ـ حياة البلاد في علم الاقتصاد . حمص .

« هولو » الذي دعت له أمُّه في ليلة القدر(*) ، تَعلّم على يدي الإمام في « الحرزة » وبزّ من قرأوا في المدينة من شباب[1] الحرزة الذي كانوا يتطلعون إلى عالم آخر غير عالم الحرزة الضيق ، وهو عنيد صلب مثل[2] الصخر . وظّفه « سليم أفندي » في السكك الحديدية مكافأة لأبيه الحاج وأمه اللذين تصوراه يسوق قطاراً بأكمله « من الشام إلى رياق ، ومن رياق إلى حلب ، من الشام إلى يافا ، من حلب إلى استنبول ، بل إنه يسوق كل القطارات من الشام إلى المدينة(*1) المنورة »[3] .

انقطع « هولو » عن القرية واتصل بعمله فهو لا يؤوب غير كل شهرين أو ثلاثة ، ولا ينطق في أوبته القصيرة دوماً إلاّ بالكاد ،لكن « هولو » الذي كان ذات مساء يسير خلف أبيه ، من الدايرة إلى البيت ،« قال بصوت أعلى مما ألف الحاج :

ـ هذه ليست ثقة .

ـ ما تكون ؟ تساءل الحاج بلا مبالاة .

ـ لا أدري.بكرة ينهدّ ظهرك ، وهم يزيدون الحمل ، وأنت سعيد ، إذا كان نصيبك لا يعادل من الرطل حبّة فكيف تكون الثقة وغيرها ؟ أنا ما فكرت بذلك ولكن أنت ؟

ـ كلامك غريب ياهولو .

ـ والله لا أدري يا أبي »[4] .

ثم بات « هولو » يتحدث عن الأتراك والسلطان والعرب والعساكر الذين ينقلهم في القطار ، وعن الباشوات والألمان والانكليز . « وكان الحاج يُؤْخَذُ بما يقول هولو تارة ، يُسعَد به ويَهْمِسُ ببعضه في ساحة المسجد(*2) ، لكنه كان يقلق على هولو ، فيوصِيه بالحذر من غوائل الأيام ، ويدعو له ، ويأمر العجوز أن تدعو له ، ويسألها :

(1)ـ انظر : « الأشرعة » ، ص : 64 . (*) تأصيل هولو .

(2 ـ 4) انظر : « الأشرعة » . ص : 65 .

(*1) التأكيد على تأصيل هولو .

(*2) التأكيد على تأصيل هولو .

«ـ ألا ترين كيف يتغيّر ابنك علينا[1] » .

تدرّج « هولو » في وعيِه الطبقي والسياسي ، ورفض أن تقارن الحجاز العربية باستنبول التركية »[2]، وحاول أن يربط الناس بتصنيف طبقي مع القدرة على التمييز بين واحد وآخر ، وارتقى في عمله في القطار من وقّاد إلى حارس للشاحنات إلى لجام . . ثم « تقدم إليه العم حاتم أبو راسين مشجعاً يحتضن هولو الذي يرتعد خوفاً من عذاب النار التي كان الإمام يتفنن في وصفها »[3] بل إن هولو بكى على صدر « العم حاتم » الذي غدا والده الروحي .

وذات يوم فكر « هولو » في أن الدنيا كلها تتحدث دوماً عن باشا[*] ما ، في الشام ، في حلب ، في تركيا ، في فلسطين ، في القطار ، في المنام في اليقظة ، . . وكان « العم حاتم » يخفف عن « هولو » حين صار يجرؤ على أن يبوح أمامه بما يهجس به ، ويؤكد له أن جهات المعمورة الأربع مبتلاة بما يشكو منه . وعندما سأله مرة : « ـ هل يدور بنا القطار في الدنيا كلها ؟ »[4] قال العم حاتم : « ـ لا يابني . لا هذا القطار ولا غيره ، بل الكتاب »[5] . ويوماً بعد يوم عرف « هولو » أن الكتاب أقدر من غيره على أن يفتح العينين على مجاهل الأرض والسماء ، وغدا (هولو) الطالب المبرز في مدرسة العم حاتم[6] .

وكانت الأسئلة تفضي إلى الأسئلة ، وكان يبدو أن العم حاتم لديه الكثير ليقوله في كل شيء ، وكان موضوعياً[7] في آرائه وقد تعلم هولو منه ذلك وتعلم أن عليه أن يسعى كي يرى كلّ إنسان على حقيقته عدواً كان أم صديقاً . تعلم خاصة أن يرى

(1 ـ 2) الأشرعة . ص : 66 .

(3) ـ « الأشرعة » . ص : 75 . (4 ، 5) ـ « الأشرعة » . ص : 77 .

(6) ـ انظر : « الأشرعة » ص : 77 / إشارة إلى تأثر هولو بالعم حاتم وارتباطه به ، فكراً وسلوكاً .

(*) إشارة إلى سيادة النمط الإقطاعي في تلك المرحلة من السيطرة العثمانية .

(7) ـ انظر « الأشرعة » . ص : 79 .

محاسن العدو ويقرّ بمناقبه . . هكذا نظر إلى كل من عرفهم (الباشا شكيم ، وسليم أفندي ، وأخيه عمر ، وحُسْن زوجته . . .) . وعندما فارق « هولو » العم حاتم أثناء الحرب الأولى بدأ يشق لنفسه طريقاً ، والتقى بأصدقاء عمر ويتّ[1] فيهم آراءه وعلّمهم . عندما انتهت الحرب أوقِفَ « هولو » عن[2] العمل ، ثم عاد إليه بمساعدة[3] « العم حاتم » ، ودخل مدرسة سائقي القطارات وتخرج منها[4] سائقاً للقطار . وكان « هولو » قد اشترك في المظاهرات[5] كافة .

حين بدأت الحكومة ترفع الأسعار علا صوته في المحطة وفي القطار وفي المرجة يشتم الحكومة ثم يدعو بعد أيام إلى الإضراب « إلاّ أنه فوجيء مثل الجميع في اليوم الثاني للاضطراب بنقله وحده إلى رياق ، وحين انتهى الإضراب دون جدوى ،توجه إلى رياق »[6] . ورأى نفسه أشبه « بالعم حاتم » بين العمال الذين استقبلوه ورحبوا به وأعانوه على تدبير غرفة ، وأمطروه بأسئلتهم .

اتصل « بديع الطارة » بهولو الذي لبّى دعوة « بديع » مع ثلاثة آخرين لحضور لقاء سياسي في زحلة[*1] . حيث أفاض أحد الأساتذة « في قانون الأشغال الذي حرم منذ أكثر من عشر سنوات على من يعمل في مؤسسة مرخصة مثل سكة الحديد أن يشارك في أي إضراب أو مظاهرة ، وعاقب المخالف بالسجن من أسبوع إلى سنة ، شأن من

(1) ـ انظر « الأشرعة » . ص : 84 ـ 85 .
(2) ـ انظر « الأشرعة » . ص : 177 .
(3) ـ انظر « الأشرعة » . ص : 183 .
(4) ـ انظر « الأشرعة » . ص : 185 .
(5) ـ انظر « الأشرعة » . ص : 191 .
(6) ـ الأشرعة . ص : 431 / إشارة إلى إضراب عمال السكك الحديدية في عهد حكومة الملك فيصل . انظر ـ حنا ، عبد الله ، 1973 ـ الحركة العمالية في سورية ولبنان 1900 ـ 1945 . ط1 . دار دمشق ـ دمشق ، ص : 46 ـ 47 .
(*1) ـ المقصود في زحلة لأنها كانت مركزاً عمالياً كبيراً ، انظر « جذور السنديانة الحمراء » ص : 89 ، 90 ، 91 ، 32 ، 133 . وهامش ، ص : 105 ـ 106 .

يحرض على ذلك أيضاً ، أو من يشارك في تكوين سنديكا أو يحرض عليها »[1] ، وذكر أحد الأساتذة مقاطعاً هولو و « مكبرا ذكرى الشارة الحمراء[*] التي رآها منذ أكثر من عشر سنوات على عدد من صدور الأساتذة في الأول من أيار وتحسر لأن الاحتفال السنوي بعيد العمال لم يستقم بعد في الشرق كله ، سوى روسيا »[1] ، لكن بديع الطارة يؤكد أنه لا بد من الإضراب . مهما كانت « زحلة » أو « رياق » أو بعلبك . قال أستاذ آخر :

« ـ وأنا ما زلت مصراً ، الإضراب ضد الغلاء نعم . الإضراب في المحطة لهدف ثان أو ثالث : نعم . لكن الإضراب أساساً ضد فرنسا . ضد الانتداب . قال بديع كأنما يتحدى : « ـ وأنا لا أزال مصراً ، الإضراب واحد ، عشرة عصافير نصطادها معاً . من شغل المحطة الذي لا تحسدنا عليه الحمير ـ ألم تر ياهولو ؟ ـ إلى الغلاء إلى الانتداب . لم تنتظر أية مدينة في سورية كلها الشام حتى تضرب »[2] . وبعد أن انتهت الجلسة قال « هولو » لـ « بديع » : ـ وددت لو جاءني دور آخر بالكلام . الطلاب هم دائماً قلب المظاهرات . أنا لم أفكر في ذلك من قبل . لا أعرف إذا كان غيري فكّر . التجار أيضاً هم اساس الإضراب . هكذا عندنا في الشام . هكذا في كل مكان كما أظن . .

(1) ـ « الأشرعة » . ص: 433 .

(*) ـ المقصود عام 1907 ، عندما احتفل بعض اللبنانيين للمرة الأولى بذكرى أول أيار على الشاطىء اللبناني وكان من بينهم « خير الله خير الله » الذي احتفظ بالشارة الحمراء التي علقها على صدره هو ورفاقه . وقد لوح بها عام 1925 عندما احتفل حزب الشعب اللبناني بهذه الذكرى في سينما الكريستال في بيروت ، ثم علقها على صدر « يوسف ابراهيم يزبك » انظر : يزبك ، يوسف ابراهيم ، 1974 ـ حكاية أول أيار ، في العالم وفي لبنان ، ذكريات وتاريخ ونصوص . دار الفارابي ـ بيروت .

(1) ـ « الأشرعة » . ص : 433 .

(2) ـ « الأشرعة » . ص : 434 .

عاد بديع إلى اندفاعه :

ـ مليح لم يتركوا لك دوراً ثانياً . هكذا تعودنا ، هنا أو في الشام . لا تزعل : والموظفون ماذا تقول فيهم ؟ سيدوي الإضراب أعلى إذا شاركوا فيه . ولكن هل هذا آية في الانجيل ؟

ـ ولا في القرآن »[1] .

عزم هولو أن يعاضد « بديع » ولعله من أجل ذلك لم يفوّت سهرة تالية ، ونسج صداقات جديدة خارج المحطة مع آخرين يعملون في الدباغة أو الطباعة ، وكان بينهم من زوّده بقصاصة أو أكثر ، فعاد كأنما كان في الشام يغلي ، وتغلي . إلا أن فرنسا كانت بالمرصاد[2] . فرضوا عليهم أن يسكتوا عن الإضراب ، ونسي الناس أمر الغلاء والأسعار والجوع واستغرقوا في الهياج ضد فرنسا ، وضد الحكومة الخانعة في الشام ، وفي غمرة ذلك نزل الجنود الفرنسيون في محطة « رياق » . وثبتت في ذهن هولو مفردة : الشيوعية .

طرد الفرنسيون « هولو » من عمله بعد أن رفض خدمتهم في « رياق »[3] ، وراح يسعى على رزقه في المهن الجديدة[*1] ، ثم التحق بالعمل في محطة القطار في حيفا[4] ،

(1) ـ « الأشرعة » . ص : 435 / لاحظ كيف يبرز « نبيل سليمان » ، من خلال الحوار بين « وديع » و « هولو » التمايز بين شخصيتين فنيتين نموذجيتين . الأولى تمثل الشيوعيين اللبنانيين السوريين الذين أكدوا ، في نضالهم على حركة الطبقة العاملة وحدها ، والثانية تمثل رؤية أوسع حين تؤكد على ما كان ينبغي أن يكون على الشيوعيين أن يطرحوه في القضية الوطنية التي يجب أن تشمل القوى الوطنية من الفئات الاجتماعية كافة ، والروائي يسعى إلى تأصيل « هولو » على هذا الأساس .

(2) انظر « الأشرعة » . ص : 435 .

(3) انظر « بنات نعش » . ص : 16 .

(*1) المقصود « تصليح السيارات » وغيرها .

(4) انظر « بنات نعش » . ص : 420 .

واستطاع « بديع الطارة » ثانية أن يرسخ في ذهن هولو مفردة ستلازم هولو طويلاً : « الصهيونية »[1] :

رأى هولو بأم عينيه المستعمرات الصهيونية الجديدة ، وعاد بذاكرته إلى تاريخه الذاتي ، وما كان قد سمعه ، ليوجز تاريخ القضية الفلسطينية منذ أن بدأت في عهد السلطان حتى اللحظة التي يفكر هولو فيها : حيث كثر المهاجرون بعد الانقلاب التركي على[*1] السلطان ، ثم بعد الذي قاله « بلفور »[2] ، ثم بعد الحرب ، ثم بعد « أن غطاهم الانكليز بعباءتهم صاروا يسابقون الزمن[6] . » ، ثم طرح هولو ضرورة محاسبة الذات العربية قبل غيرها : « قبل أن نقول للانكليز وبلفور والصهيونية واليهود ، خلنا نحكي على بعضنا » . . عن الانكليز الذين جمعوا ملك الشام[*2] الأول بعد مئات

(*1) المقصود انقلاب 1908 في تركيا .
(1) انظر « بنات نعش » . ص : 421 .
(*2) المقصود انقلاب 1908 في تركيا .
(2) انظر « بنات نعش » ، ص : 422 / المقصود : « وعد بلفور » .
(3) « بنات نعش » . ص : 422 .

*2) المقصود الملك فيصل حيث جمعه الانكليز مع « وايزمن » في الغويرة منطقة العقبة يوم 1 حزيران 1918 . وفي خريف 1918 حين زار الملك لندن زاره وفد من عظماء اليهود والانكليز . وطلبوا منه أن يوقّع كتاباً منه عطفاً على فكرة الوطن القومي لهم باللغة الانكليزية فوقعه الملك باللغة العربية بعد أن كتب عليه ما نصه : « مشترطاً أن ينال العرب استقلالهم من رفح حتى طوروس وخليج العجم « انظر » الثورة العربية الكبرى « مجلد3 . ص : 36 ، وانظر « الحركة العربية » فكرة الاتصالات بين العرب و الصهيونيين من ص : 427 إلى 429 التي تتضمن معلومات ضافية على الموضوع ذكر المؤلف أن الاجتماع الأول بين « وايزمن » وبين « فيصل » جرى خلال ثلاثة أرباع الساعة في يوم 4 حزيران 1918 في « الوهيدة » (بين معان والعقبة) . وجرى اللقاء الثاني في يوم 11 / ك1 / 1918 في فندق « الكارلتون » في لندن وفيه وقّع « فيصل » على الكتاب الذى قدم له.باللغة الانكليزية . أنظر ص : 431 و 434 .

السنين ،مع قائد صهيوني كبير أو أكبر ، مرة في الغويرة ،ومرة في الكارلتون قريباً أو بعيداً من بيت الست لميعة[*1]والمستر بيجيت ، في لندن »[1] . وفي زمن تال كان « هولو » أقدر على أن يقول : « ـ اليهودي الذي عاش على هذه الأرض ، أباً عن جد ، مثله مثلنا . أما الغريب الذي يترك أرضه ، مرة من روسيا ، ومرة من بولونيا ،ومرة من بلاد الواق الواق ، فلا أرض له عندنا ، لا إذا باع ولا إذا اشترى ، لا بالصهيونية ولا بالانكليزي ولا بمن يمكُر بنا أو يضحكون عليه ، في الشام بيننا يهود يعيشون مثلنا ، هنا في حيفا ، أما هجرة ومستعمرات ودولة تمط فلسطين من الحجاز إلى الشام ومن النيل إلى الفرات . فلا والله . ما صحّت لهم ولا لغيرهم . ما بقي إلا أن يأخذوا الحرزة ، وينكشوا لي القبور ويقولوا هذه زمارين ثانية وعدنا ربنا بها »[2] .

وعرف « هولو » شيئاً مما يقال عن « لور نس » وشذوذه[3] الجنسي ، وعن الجاسوسة اليهودية عشيقته التي انتحرت دون أن تبوح بمهمتها[4] .

وعرف مشكلة تتعلق بتاريخ الحزب الشيوعي الفلسطيني وعلاقة ذلك بالحزب الشيوعي في سورية ولبنان تمثلت في القيادة اليهودية للحزب الفلسطيني ، وقد وقف « هولو » ضد قيادة اليهود للحزب[5] : « ماذا يفعل اليهود بينكم » ثم كشف الشيوعيون هذا الخطأ[6] .

(*1) إشارة إلى موقف البرجوازية السورية فئة المشاركين في الرأسمال الأجنبي .

(1) بنات نعش . ص 422 .

(2) بنات نعش : . ص : 423 .

(3)ـ بنات نعش . ص : 424 .

(4) بنات نعش . ص : 426 .

(5)ـ بنات نعش . ص : 429 .

(6) بنات نعش . ص : 430 / المقصود هو « جوزيف برجر » رئيس الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي كان مندوب الأممية الشيوعية ، وكلف بتشكيل حزب شيوعي=

ولما اشترك هولو في حركة الإضراب[1] سرحه الانكليز من العمل وعاد إلى دمشق وشارك في المظاهرة الجماهيرية ضد زيارة بلفور لدمشق[2] ، ثم عمل مع « عبد الودود » في المدبغة وبدأ التحضير للثورة السورية الكبرى .

ياسين الحلو : كشف « نبيل سليمان » من خلال تصوير شخصية « ياسين الحلو » الفنية ، تاريخ بعض العشائر السورية ،والقبائل ، في مناطق سورية مختلفة (الجولان أو شرقي حلب ، وشرقي الفرات) . ورصد مواقف هذه العشائر من القضية الوطنية :

ما كاد « ياسين الحلو » يصلح أرض « أم مرعي »[3] . ويهنأ في بيته الجديد مع زوجته « هند » حتى اندلع رصاص الثوار في الجبال المطلة على « الزنبقلي » ،وبدأ الفلاحون يفرون من الإقطاعيات المجاورة ويلتحقون بصفوف الثورة التي امتدت من جبال العلويين إلى الحفة واسكندرونة وحارم وانطاكية والقصير وباب الهوى وكفر تخاريم[4] وسلقين . وعندما « لفظ لسان « أبي هند » بأسماء الثوار ، وبأسماء الفلاحين الذين يلتحقون بالثورة »[5]« انصبَّ عليه غضب السماء ، وأمره الحارس في غمضة عين أن يرحل دون أن يسمح له بوداع صهره وابنته وحفيده الأول »[6] .

= في سورية ولبنان . التقى مع فؤاد الشمالي ويوسف يزبك ، وساهم في تشكيل الحزب ، ثم فُصِل من الأممية الشوعية لمواقفه المتعاطفة مع الصهيونية . انظر ـ جذور السنديانة الحمراء . ص : 122 ـ 123 .

(1) انظر ـ بنات نعش ، ص : 420 .

(2) انظر ـ بنات نعش . ص : 456 ـ 258 / المقصود : الزيارة التي قام بها « بلفور » إلى دمشق في 8 نيسان 1925 ، ونزل في فندق فيكتوريا . وقد قامت مظاهرتان كبيرتان ضد زيارته في يوم الأربعاء وفي يوم الخميس ،مما اضطر سلطات الاحتلال الفرنسي لتهريبه قبل صلاة يوم الجمعة . . انظر ـالثورة العربية الكبرى . مجلد 3 ، جـ1 ، ص : 292 .

(3) ـ انظر ـ بنات نعش . ص : 109 .

(4) انظر ـ بنات نعش . : 111 .

(5 ، 6)انظر بنات نعش . ص : 112 .

أخذت « هند » تقسو ، وتتبدل شيئاً فشيئاً وصارت تصدح بما يتهامس به الجميع من تبدل « رستم آغا » وزلمه ، بعد أن تفاقمت أخبار الثورة في كل مكان . ما عاد الآغا ولا أي من زلمه يُرى ضاحكاً . و « هند » على يقين بخير مَنْ ينصِت إليها : فمن يقدر أن يواجه الفرنسيين اليوم لن يعجزه أن يقف في يوم آخر في وجه رستم آغا . البلاد لن تخلو من الرجال ، ولرستم آغا ومَنْ معه يومٌ أغبر مهما تأخر الوقت فهو آت »[1] . ولما أعدم الثوار المختار الذي خانهم في جبل آخر جأرت : ـ إلى جهنم لا رحمه الله »[2] .

أما « ياسين » فصار يتحاشى أخبار الثوار وأخبار « رستم آغا » . وجعل يفكر في سهده أن أولاء الشيوخ والزعماء قد يكونون أغووا الفلاحين . فالعين لا تقاوم المخرز ، وأولاد الفلاحين شأنهم دوماً ، أغبياء ، لا يعرفون ما يضرهم ولا ما ينفعهم ، فما الذي سيجنونه أخيراً ؟ هل يصدقون بأنهم سيغلبون فرنسا ؟ وإذا غلبوها فهل ستقوم القيامة ؟ ها قد رحل الأتراك فماذا تبدل ؟ و « صار ياسين يخشى ما يدور في رأسه ، يكتمه عن نفسه ، وليس عن هند وحسب . إعدام المختار صوّر له أن أي كلمة خبيثة مما يطوي تجعل هند نفسها تعدمه ، قبل الثوار ، فنظْرة هند ـ لا حدتها فقط ـ باتت أمضى من الخنجر[3] . ثم باغتته « الحارس في الكرم : ـ ماذا تفعل هنا ؟ خذ حرمتك والحق بأهلها ، اليوم ترحل يا ياسين . . مفهوم ؟ »[4]. خَرِسَ « ياسين » وربما طرش . فكل ما كان يدوِّم في رأسه أن هذه الأيام ذهبت بعقل الجميع ، وأنه كان جحشاً حين وقّع على سند المغارسة ، وأنه سوف يظل جحشاً إلى أن يموت[5] .

بدأ « ياسين الحلو » ـ مع زوجته هند ـ ترحاله من قرية مسيحية إلى أخرى أرمنية إلى جسر الشغور[6] . ومن مقام النبي هود إلى مقام النبي شيث . ومن حلب إلى تل عابور والسفيرة ، وتلدف ، وبدأ الروائي الكشف عن تاريخ العشائر في شرقي حلب :

(1) انظر بنات نعش . ص : 112 .
(2 ، 3 ، 4)ـ انظر بنات نعش . ص : 114 .
(5) انظر بنات نعش . ص : 115 .
(6)ـ انظر بنات نعش . ص : 118 .

كيف استوطنت عشائر البكارة ، وإلى من يعود فلاحو البو عابد ، وما هي علاقاتهم بالإقطاعي « فاتح بك المعلم » ، و « الفردون » الذين جاؤوا من شرقي الرقة[1] وهي واحدة من عشائر « العفادلة » التي استوطنت مناطق « تلدف » ، وعندما انشقت على نفسها ظهر « رشاد بك الجويبري »[2] الذي سجل باسمه أراضي الأموات والأحياء حتى آل إليه كل ما عمرت « الفردون » حول نهر الذهب . إلّا أن « الفردون » قامت قومة رجل واحد على الرغم من شقاقها ، وما كان « رشاد بك » لينتصر لولا الخيانة : « أغوى « رشاد بك » شيخ العشيرة وجعله وكيلاً على ما سجّل من الأرض ، باع الشيخُ العشيرةَ بقطعة صغيرة من الأرض وفرس ، وربما بقطيع صغير من الأغنام ، أو حفنة من العثمليات ، فانقسمت العشيرة من جديد ، وناصر الشيخ من ناصره ، وعاداه من عاداه ، وتفرج آخرون وضاعت الأرض »[3] . ثم قُتِل الشيخ غيلة وسجلت الأرض باسم « رشاد بك »[*] .

اتصل « ياسين » بقبيلة « الهنادي » التي أقامت عند نبع « أبي قلقل » منذ أن جاءت من مصر مع حملة « ابراهيم باشا » ، ولم تعد ترحل ، ولم تعد تغزو واستوطنت مثل غيرها تدفع الخوة للسلطان ، ثم للأمير « دشاش » ، ورأى « ياسين » عشيرة « البونيا »[4] وعرف نظام فلاحيها ورعاتها ، وعشيرة « الولدة » وقسمة محاصيلها على

(1 ـ 2) ـ انظر بنات نعش . ص . 120 .
(3) « بنات نعش » . ص : 121 .

(*) المقصود أن الفرنسيين ، لم يمسوا النظام الاقطاعي لملكية الأراضي الذي كان سائداً في عهد الأتراك . فإن الاقطاعيين لم يحتفظوا بأراضيهم الشاسعة وحسب ، بل زادوها كذلك على حساب الأراضي المصادرة من السلطان . وفضلت الإدارة الفرنسية انتزاع الأرض من الفلاحين ، وقامت بمسح الأراضي وتسجيلها في السجل العقاري (الدكسترو) وبإرفاق ذلك بمصادرة الأراضي التي لم يكن بوسع الفلاحين أن يقدموا الوثائق الثبوتية على ملكيتها . انظر « تاريخ الأقطار العربية المعاصر » جـ1 . ص : 83 .

(4) انظر « بنات نعش » . ص : 129 .

البيدر كما يلهم الله الخيزرانة[1] . . ثم التقطه ، أخيراً ، « هفل » عبد الأمير « دشاش » ، وقدمه ليخدم في سلك الأمير .

وكشف « غنيم الضرس » لياسين تاريخ الأمير « دشاش » الذي قَتَلَت عشيرة « الرولة » أباه والأمير ما زال صغيراً ، وأقام عمّه علاقة قوية بالسلطات التركية ثم انقلب عليها[2] واحتل حلب وفتح سجونها ، وساعدت فرنسا الأمير « دشاش » لتولي أمارته على العشيرة عندما كان في سني شبابه المبكر ، لأنها عرفت أن الأمير مفتاح هذه الديار من حلب إلى العراق[3] ، وردَّ الأمير المعروف لها ، فخضّد شوكة « العقيدات » و « البوسرايا » الذين هزموا الانكليز[4] ، وردّ غارات « شمّر وطيء » عن الفرنسيين ، وهما اللتان ردتا « عنزة » نفسها على عهد الحكم الوطني ، لكن الحرب والموت هدُّهما وخاصة مرض التيفوس الذي جاء مع الأرمن . وهما اللتان أسقطتا طائرات الانكليز وغنمتا سياراتهم وملأتا « وادي علي » من أمواتهم ،وجاءت فرنسا وما أفلحت معها حتى ساعدها الأمير « دشاش » ومشت حملة فرنسية بقيادته ، وعلى الرغم من أنهما قطعتا الطرق وهدمتا الجسور ، ما ترك الأمير رأساً يُرفع من حلب إلى العراق حتى الضريبة حصلها لفرنسا . وحين جاء الأميركان يسألون عن فرنسا قال الأمير بصوت عال :

ـ نريدها[5] ، والملك نفسه جنّ ، وقبض على الأمير في « حمص » وساقه إلى « حلب » لكن فرنسا لم تتركه[6] ، والأمير هو الذي قال إن عرش الملك من قش ، والأتراك يبوسون يد الأمير « دشاش » حتى الآن .

الأمير « دشاش » يريد إمارة أكبر من إمارة شرقي الأردن ، وفرنسا عقدت معه اتفاقاً لا أحد[7] يعرفه ، وأهدت إليه إيطالية وسام جوقة الشرف . لذلك فالأمير دشاش

(1) انظر « بنات نعش » . ص : 130 ـ 131 .
(2) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 136 .
(3 ـ 4) انظر « بنات نعش » . ص : 137 .
(5) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 137 .
(6 ـ 7) انظر « بنات نعش » . ص : 138 .

وحده من يجلجل صوته : أنا سلطان البر : إذا مَيَّلْتُ عقالي مالت الشام . ولولا فرسان الأمير لما قال المثل : لا تقاتل من إذا شدَّ رحل[1] .

وكشف « ياسين الحلو » من خلال رحلاته في خدمة الأمير ، تاريخ عشيرة « الموالي » ، ومذاق قهوة شيوخهم ، وصراعهم ضد فرنسا التي زرعت الحقد بينهم وبين « الحديديين » الذين لا يمتون إلى الحدادة بِصِلة ، وأن « الموالي والعقيدات والفضل » ضد فرنسا وبقية البدو معها[2] .

ثم كشف تاريخ الملاحة في نهر الفرات[3] ، ومرور « سايكس » من المنطقة[4] ، وتاريخ عشيرة « الولدة » وعلاقتها[5] مع الفرنسيين ، وتاريخ « الشركس » و « التشاشان »[6] ، وتاريخ شيوخ « الطفطافة »[7] والمكحل ، وتجارة القصب ، وتاريخ تجارة السوس والشركة « اندروس[8] ومورِيس » التي احتكرت تصدير السوس .

كما كشف مشاركة الأمير وتركيا في تهريب الحشيش ، وكشف مزارع القنَّب التي كان يملكها الأمير « دشاش » الذي أخذ بذاره من طبيب فرنسي[9] كانَ مختصاً بعلاج الأمير . لذلك مرض « ياسين الحلو » جراء ما شاهد وما عرف وقال : إن الفرنسيين هم كل البلاء .

(1) انظر « بنات نعش » . ص : 142 .

(2) انظر « بنات نعش » . ص : 143 .

(3) انظر « بنات نعش » . ص : 183 و 201 .

(4) انظر « بنات نعش » . ص : 202 .

(5) انظر « بنات نعش » . ص : 186 و 191 .

(6) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 204 .

(7) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 208 .

(8) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 207 .

(9) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 223 .

راغب الناصح :

كشف نبيل سليمان من خلال متابعة تصوير حياة « راغب الناصح » ومصيره ، ما لم يكشفه من خلال متابعة تصوير حياة « ياسين الحلو » . من تاريخ العشائر ومواقفها الوطنية ومن الأحداث التاريخية التي وقعت في منطقة الجولان وحوران :

أحب راغب الناصح « غالية »[1] الشركسية في « بئر عجم » وعرف أهلها وعاداتهم وتقاليدهم ثم تزوج « صبيحة »[2] من « العال » وعرف أهلها ،وشارك في عملية عسكرية مع عناصر الثورة في « الحولة »[3]وأحرقوها ، وشارك عناصر مخفر « عين فيت » وفي حوادث الثورة في « حاصبيا وراشيا »[4] مع عشيرتي « النعيم والرفاعية » ،وعرف حادثة « خربة غزالة »[5] وقصف الفرنسيين[6] لحوران .

خطف « دهيبة »[7] والتجأ إلى الشيخ « مصرب »[8] في « اللجاة » وهو شيخ عشيرة تنتسب إلى عرب اليمن الزبيديين ، وسمع في مجلس الشيخ مطالبة مشايخ حوران بفصلها عن سورية وإلحاقها بشرقي الأردن[9] . ثم ترك الزبيديين ومرّ على الشراكسة ،ونزل في قرى « الزعبيّة » الذين يأمنون شرّ البدو وكرمى لجدهم

(1) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 73 .
(2) انظر « بنات نعش » . ص : 74 .
(3) ـ انظر بنات نعش » . ص : 76 .
(4) انظر « بنات نعش » . ص : 77 ـ 98 .
(5) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 78 .
(6) انظر « بنات نعش » . ص : 78 .
(7) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 147 .
(8) انظر « بنات نعش » . ص : 148 .
(9) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 150 .

« الجباوي »[1] الذي باركه الله ، ثم انطلق إلى « أزرع » كي يبيع سلاحه وحصانه وهناك التقى « بعمر التكلي »[2] ، وعمل معه . وسكن في إحدى مزارعه .

ثم أسر زوجَ « دهيبة » وقاده إلى الأمير « جهجاه » الذي فرض عليه أن يلتحق بخدمة الأمير « دشاش »[3] .

في مضارب الأمير « دشاش » بدأ نجم « راغب الناصح » يلمع ونجم « ياسين » يخبو . وكشف الروائي من خلال رحلتي « راغب الناصح » في خدمة الأمير « دشاش » لتوطيد نفوذه على مناطق إمارته ما لم يكشفه من خلال رحلات « ياسين الحلو » من تاريخ العشائر والمنطقة الشرقية الشمالية كلها ولم ينس حب « راغب الناصح » للعبدة « شعيلة » التي أهداها شيخ عشيرة « الحسنة » « مجلاد » إلى الأمير « دشاش » كرابط فني بين حركته الفنية وحركة « فياض العقدة » :

كشف « راغب » تاريخ « رأس العين »[4] وعشائرها وأسلوب زراعتها ، وتاريخ عشيرة « التشاشان »[5] ثم « عامودة » و « الدرباسية »[6] ، وزار القبائل الكردية وعدد أنواع عشائر الأكراد ومذاهبها[7] ، وأهداهم بنادق جديدة . ثم « القامشلي » وخصّ شيخ « الاليان » ببندقيتين[8] على الرغم من أن الآغا ثار ضد الفرنسيين ، ثم « الحسكة » ومضارب « الجبور » وفي مضارب « شمّر » سار على السراط المستقيم بين[9] الانكليز والفرنسيين ، ثم عرج على « الشرابيين » الذين من نسل « حليمة السعدية » ، وما زالت نساؤهم ترضع أطفال القبائل[10] .

(1) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 151 .

(2) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 159 / كذا كانت العادات ، وهذا أمر معروف فمن يقع في أزمة يلجأ إلى أمير عنزة وعندما يدخل في حماه ويخدم عنده يفرج عنه كربته .

(3) ـ انظر ـ بنات نعش . ص : 196 .

(4) انظر ـ بنات نعش . ص : 480 .

(5 ، 6) انظر ـ بنات نعش . ص : 481 .

(7 ، 8، 9) انظر ـ بنات نعش . ص : 482 .

(10) ـ انظر ـ بنات نعش . ص : 483 .

عند « دير الزور » أوقفه الفرنسيون ، ومنعوه من توزيع البنادق لأنه وصل إلى عشيرة « العقيدات »[1] التي تعادي فرنسا .

ولما عاد من الرحلة الثانية سمع كيف غزا الأمير « دشاش » عشيرة « قيس »[2] مستخدماً السيارات والرشاشات . وأمر الأمير أن يُجمع السلاح العتيق ،وكلَّف « راغباً » ببيعه لمن غُرِّم من الدمشقيين بعد قصف[3] دمشق ، ونافس « راغب » « عمر التكلي » ببيع السلاح ، وأهدى « هولو » بندقية .

كشف « نبيل سليمان » من خلال تصوير الشخصيتين الفنيتين « عمر التلكي » ،و « فياض العقد » تاريخ الفئة الانتهازية :في المدينة ممثلة بنموذج « عمر التلكي » وفي الريف ممثلة بنموذج « فياض العقدة » :

فياض العقدة :

التجأ « فياض العقدة » إلى حمى عشيرة « الحسنة » وشيخها « مجلاد » بعد هروبه من المشفى ، وأنكر حقيقته على كل مَنْ مرّ عليه ، وقبع منتظراً الفرصة المناسبة ،بعد أن طابت نفسه للسيطرة والزهو من خلال الأعمال التي أداها للشيخ مجلاد . وعندما احتلت فرنسا الشام انتهز الاحتلال وأفاد منه ومن علاقة الشيخ « مجلاد » بالفرنسيين[4] . عاد حراً إلى أهله على ظهر حصان[5] كما الفاتحين . ولما رأى « نجوم » وسمع قصتها قرر نهائياً المسير حسب الطريق التي هانت عليه . اتفق مع « الخواجة ثابت »[6] عميل الفرنسيين وأصبح وكيلاً له على أراضيه ، وتنكر لأصدقاء الأمس ووشى

(1) - انظر ـ بنات نعش . ص : 484 .

(2) - انظر « بنات نعش » ص : 484 ـ 285 .

(3) - انظر ـ بنات نعش . ص : 490 .

(4) انظر : « بنات نعش » . ص : 24 .

(5) - انظر : بنات نعش » . ص : 26 .

(6) انظر : « بنات نعش » . ص : 30 ـ 31 .

« باسماعيل معلا » ، وأرسل « ترياق » بنت « نظير الصوان » للخدمة في بيت « الخواجة ثابت » في بيروت ، وأقنع « عبد اللطيف » بالتطوع بالجيش الفرنسي ، وأصبح عميلاً للفرنسيين[1] ،مما اضطر الثوار إلى قتله .

عمر التلكي :

كشف الروائي من خلال نموذج « عمر التلكي » « نشأة البرجوازية المحدثة النعمة التي تحسم دون تردد علاقتها بهويتها (الوطنية ـ الاجتماعية ـ الأخلاقية) حيث يمضي كالسهم باتجاه الحضيض ، باتجاه التعاون المباشر مع الفرنسيين والارتباط بالصهيونية[2] « كما كشف تاريخ المنطقة التي عمل « عمر التكلي » فيها ،وبين نوع الملكية وشكل الاستثمار ،ودرجة تطورها ،وعلاقاتها ،والأحداث التاريخية التي مرّت بها :

كان عمر مطيعاً ومزهواً[3] بذاته ومدعياً في الوقت نفسه ،مُتملّقاً[4] حتى في صلاته ،وهو يريد امرأة ليضاجعها كل يوم ،صبحاً وعشية ،لا ليتزوجها وتفرخ له[5] ، كل سنة ،ولداً . عمل في دكان « سليم أفندي » وتعلّم من الدكنجية[6] شعاراتهم ،وبدأ أولى خطواته عندما باع السلاح المنهوب من الأتراك في المناطق التي اشتعلت فيها[7] الثورات ،في أضنة وكيليكيا بعدما استشار « سليم أفندي » وشاركه .

(1)- انظر : « بنات نعش » . ص 312 .

(2)- عيد ، عبد الرزاق ،وباروت ،محمد جمال ، 1991 ـ الرواية والتاريخ . ص : 59 ، دار الحوار ، اللاذقية .

(3)- انظر « الأشرعة » ، ص : 65 ، 67 .

(4)- انظر « الأشرعة » ، 81 و 82 .

(5)- انظر « الأشرعة » ، 83 .

(6) انظر « الأشرعة » . ص : 145 .

(7) انظر « الأشرعة » ص : 146 .

وامتلأت جيوبه بالذهب ، فنال عشاءه الأول في بيت « سليم أفندي » ، ثم عاد مرة ثانية ليتاجر بالسلاح بين الأرمن والأتراك والعرب والفرنسيين والانكليز والشيعة والسنة والعلويين وصارت أضنة مركز سعيه[1] المحموم . ولما عاد لم يكن ملهوفاً ولا قلقاً حتى يهرع إلى دكان « سليم أفندي » أو إلى بيته .

الخطوة الثانية باتجاه صعود « عمر » كانت عندما أصبح مشرفاً على « الحرزة » وعلى « المريجانة » وتنكره لأخواله[2] ووشايته بهم حتى أحس « هولو » أن عمراً يصفق في سرب آخر[3] بعد أن توفي الحاج .

كانت القفزة الثالثة بعد موت « أمير الحج » حين كلفه « الباشا شكيم » بإدارة أملاك المرحوم التي ورثتها الست « زهرة »[4] عن أبيها . ولما سافر « عمر التكلي » إلى الجولان وحوران ورأى القرى والأراضي التي كُلِّف بإدارتها حلم أنه سيجعل أملاك الست « زهرة » غوطة ثانية ، « مريجانة » ثانية . ولما اشترى الأراضي من مزاد الفرنسيين العلني ، حين باعوا الأملاك المصادرة من الفلاحين الحوارنة بعد حادثة « خربة غزالة »[5] أعاد « عمر التكلي » إنتاج حلمه أنه سيجعل مما حاز عليه ومما أُوكل إليه « غوطة التكلي » أو غوطة « ابن التكلي » أو غوطة « عمر التكلي » أو « عمر العمر » . ويَعلم « القارىء » من خلال متابعة حياة « عمر » كيف ضَمَّ « أمير الحج » أملاكَه في تلك المنطقة عندما حماها أصحابُها من زلم السلطان ثم ضم أراضيهم إليه[6] . وكيف أصبح « ابن التكلي » مالكاً للأرض وقادراً على تسيير قوافل تجارية بين دمشق والعال وسورية وفلسطين والأردن مستفيداً من أصدقاء هولو « راغب الناصح » ومن أصدقاء

(1) ـ انظر « بنات نعش » ، ص 155 ـ 156 .

(2) ـ الأشرعة . ص : 376 ـ .

(3) ـ الأشرعة . ص : 303 .

(4) انظر « بنات نعش » . ص : 32

(5) انظر « بنات نعش » ، ص : 68 .

(6) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 39 .

« راغب الناصح » « الجاويش » و « قاسم السعد » ، ومن « أم نور الدين » وابنها . .

وَشَى « عمر » برفاقه الذين ساعدوه في تهريب السلاح إلى « مسلّم دحة »[1] وتخلّص منهم . ووطد علاقته بالبنت اليهودية « بنت قطيش »[2] ، وبالأمير « جهجاه » وابنه الأمير[3] « مدحل » حيث قاده « عمر » « كالحمل الوديع إلى بيت صليحة »[4] وطلب منها أن تفكك عظام الأمير بنفسها ساعة أو ساعتين .

وطَّد علاقته « بالخواجة ثابت »[5] وزاره في بيروت ما دامت بيروت مفتاح الفرنسيين وما دام « الخواجة ثابت » مفتاحهم في لبنان وسورية ورأى « عمر » أن يَرقص للقرد في دولته[6] .

في الربيع زار منطقة أعماله و « كان الربيع يطلع في جوانحه مثلما في التراب الذي يفرش ذراعيه فوقه ، ويطبق عليه ، إنها أرضه ، أرض عمر التكلي ، لا أرض الست « زهرة » ولا الأمير المرحوم . إنها غوطته الموعودة ، تتفجر له وفيه ، تجعله وهو يشرف أخيراً على سهل البطيحة مثل حبة العنب العبلى التي لا تكاد تحتمل يوماً آخر من انتظار الشمس »[7] :

عمر المتطلع للالتحاق بالفئات العليا ، ليس هناك ما يحد من طموحه ،فهو لا يجد حرجاً من مراودة الست « زهرة » زوجة « الباشا شكيم » عن نفسها ، لكن الست زهرة المترددة أمام مراودته لا تلبث أن تحسم موقف طبقتها المتردد أمام هؤلاء

(1) انظر « بنات نعش » . ص : 48 .
(2) انظر « بنات نعش » . ص . 50 و 54 .
(3) انظر « بنات نعش » . ص : 55 .
(4) ـ انظر « بنات نعش » . ص . 56 .
(5) ـانظر « بنات نعش » . ص : 57 .
(6) انظر « بنات نعش » » . ص : 66 .
(7) انظر « بنات نعش » . ص 60 .

المتطلعين باشتهاء إلى الارتقاء ، فتطرده ليحد طريفه(*1) الطبيعي إلى « أم نورالدين »(*2) الخادمة ، أو « سارة » اليهودية العاهرة أو غيرها من العاهرات »(1) .

و « أصبح لعهد عمر التكلي » نكهة أخرى ،أقرب إلى الفؤاد ، وأعصف به ، لا حدود فيها بين الوكيل والتاجر والملاك ، والحبوب والذهب وزير النساء وزمن انقضى ومعلوم ومجهول وحطر وأمان »(2) . لذلك رأى « عمر » أن يدشن عهده الجديد بالارتباط مع الصهيونية العالمية فشغل نفسه بالكولونيل « كيش » وركض وراءه من مكان إلى مكان(3) . من بيت سارة الجديد إلى السرايا ،ويمكن إلى بيت رئيس الدولة ، ليشارك في الاتحاد الصهيوني الذي جاء الكولونيل إلى سورية من أجله .

ودبّر « عمر » مع ضابط فرنسي ، مسألة نهب قلعة دمشق(4) أثناء ثورة أبناء دمشق واندفاعهم إليها ، حيث أُخذ السلاح القديم وتوكل « عمر » ببيعه للناس كي يؤدوه ضريبة فرنسية فرضت عليهم بعد قصف دمشق . لكن الثوار حاولوا قتل « عمر » ونجا « عمر » من الموت بأعجوبة وخرج من المشفى مشلولاً يجرّ عجزه التاريخي الدائم .

حمادي الحسون : كشف « نبيل سليمان » شيئاً من تاريخ فلسطين ، وتاريخ اللاذقية من خلال تصوير حياة « حمادي الحسون » وتتبع مصيره : « حمادي الحسون » الذي فر من الجيش العربي الميمم شمالاً حالما علم باتفاقية « سايكس ـ بيكو » ووعد « بلفور » ،التجأ إلى المقام « البهائي »(5) في فلسطين ، وتعلم الحكمة من « تذكرة

(* 1) انظر « بنات نعش » . ص : 106 التوثيق من الطالب .
(* 2) انظر « بنات نعش » . ص : 61 . التوثيق من الطالب .
(1) انظر عيد ، عبد الرزاق ـ التاريخ والرواية . ص : 60 ـ 61
(2) « بنات نعش » . ص : 419 .
(3) « بنات نعش » . ص : 448 و 449 .
(4) « بنات نعش » . ص : 476 .
(5) « بنات نعش » . ص : 328 .

داوود » الطبية[1] ، وأصبح حكيماً شعبياً مشهورا .

عندما وصل إلى أهله وجد أمه مشلولة[2] ، وأخواله الذين تأثروا بموجة التبشير البروتستاني قد أصبحوا مسيحيين ، وأخته « هيلانة » تخدم في بيت « آل سكادة » الإقطاعيين والوكلاء التجاريين الذين ما عادوا أصدقاء الانكليز « إذ أقاموا حفلاً لم تشهده اللاذقية للفرنسيين الكبار في دولة العلويين ، وربما في الشام وبيروت ، وصاروا أصدقائهم »[3] . اضطر « حمادي الحسون » إلى العمل في شركة « آل سكادة » التي تصدر الزيوت والتبغ والحنطة وسواها منذ عشرين سنة أو ثلاثين ، وسافر على مراكبهم ،ولما اختفت أخته « هيلانة » اتهموها بتدبير سرقة مجوهرات سيدتها مع أخيها « حمادي » فألقي عليه القبض بمساعدة الفرنسيين وأودع[4] السجن ، ووقَعت « هيلانة » في فخ « عبود بك الرشدة » الذي قتلها عندما علم بمحاولتها وضع السمّ له .

عمل « حمادي الحسون » في رصف الطرقات ،ثم التحق بالثورة المندلعة في جبال العلويين ،وأُصيب في أواخر معاركها ، ورأى بأم عينه كيف أحرق الفرنسيون أحد زعماء الثورة[5] الذين قاتلوا مع « عزالدين القسام » . وعاد إلى قريته « وسرعان ما صار « حمادي » شهيراً ، في أنحاء الجبل القريبة ، والعصية ، يُردّدُ على الدروب والتنانير أو في الجنازات والدكاكين ، وما يرسم شؤونها الصغيرة ،خبر ذلك الشاب ـ أو الكهل العازب ـ الذي نذر حياته للعبادة بعد أن طاف في الدنيا ، وعرف منها ما يجهله الآخرون . . وباتت لديه لمسة الشفاء . حتى النقرس والجنون يقدر على

(1) « بنات نعش » . ص : 330 .
(2) ـ « بنات نعش » . ص : 339 .
(3) ـ « بنات نعش » . ص : 341 .
(4) ـ « بنات نعش » . ص : 344 .
(5) ـ انظر ـ بنات نعش . ص : 350 .

معالجتهما »[1] ، ثم عرف بالشيخ الأعرج ، و « الحسون المبارك » ، و « الولي الوحيد الحي » . أو « المؤمن المصروع » ،و « الأعرج المجذوب » و « الشيخ الملعون » إلا أن الألقاب المعظمة هي التي غلبت »[2] .

كان « لحمادي الحسون » خلوات في الغابة ،ورؤى خاصةبه. عاد مرة دون عرج يسابق الريح ووصل إلى بيت أحد الشباب من المرضى المقعدين وأمره بالنهوض فنهض ، وأمر أن يجمع له الشيوخ « فالدنيا تشهد ما لا تشهده إلاّ كلما دار الفلك دورة ، بين قبة وقبة ، أو خسوف وكسوف ، وأظْهر الغائب أو غيّب الظاهر . وصدع الرجال للأمر وهم حيارى أو سكارى »[3] .

سخّر « حمادي الحسون » سمعته الأسطورية في تثوير الفلاحين ضد فرنسا وضد عملائها الإقطاعيين « شاهين آغا التركماني أو أسعد أفندي أو سواهما من ملاكي اللاذقية »[4] وفي أجواء من التنافس الأسطوري حول ظاهرة الزلزال . قال حمادي الحسون : « إن الله جل جلاله خلق الأرض على ظهر حوت ،والحوت في الماء والماء على ظهر صفاة ، والصفاة على ظهر ملك ،والملك على صخرة ، والصخرة في الريح »[5] وقال خصومه : « إن الأرض محمّلة على قرن ثور ، يتعب مثل الإنسان ،فيبدل من قرن إلى قرن ، وذلك هو الزلزال العظيم ، يعيشه الإنسان ، ولا يراه ،حتى لو طاف البحار جميعاً »[6] .

(1) ـ انظر ـ بنات نعش . ص : 352 .

(2) ـ انظر ـ بنات نعش . ص : 353 .

(3) : « بنات نعش » . ص : 356 / يلاحظ أن الروائي أراد أن يؤرخ إلى نوع من نمط العقلية الأسطورية الذي ما زال باقياً في المنطقة من خلال التخييل الروائي (الأسطوري ـ الواقعي) .

(4) : « بنات نعش » . ص : 549 .

(5) : « بنات نعش » . ص : 549 .

(6) : « بنات نعش » . ص : 549 ـ 550 .

ولم يتأخر الفرنسيون هذه المرة ،جاؤوا بالعشرات ، وكان في ركبهم « أسعد أفندي » وربما سواه من الملاكين المسلمين والمسيحيين ، وانهمر الرصاص من الجهات الأربع ،وتقوضت بيوت عديدة ، وسيق العشرات إلى سجن المدينة ، ثم اختير من بينهم « حمادي الحسون » وذلك الفلاح ،وسيقا إلى الرقة[1] ، ووصل إليها مع أول من وصل من المنفيين (عزيز ، وحسين فندي ، وبديع الطاره) .

وكشف « نبيل سليمان » خلال تقديم النموذجين الفنيين « سليم أفندي البسمة والباشا شكيم » تاريخ علاقة فئتين من الطبقة البورجوازية بالوطن ونضاله التحرري :

الباشا شكيم : واحد من أقدم ملاكي الغوطة والأرض في الديار الشامية وأسرته من الأسر السورية المالكة الأكثر عراقة وأولاها تفتحاً على ما يجري في الدنيا ، صاحب يد طولى من قصر السلطان إلى الشركات الألمانية والانكليزية والفرنسية . . عرف نساء كثيرات ، وقادة كثراً ، وزعماء ، وفلاحين وعمّالاً ، لم يخالف حَماهُ ، حينما يختصر ، في رؤيته الإسلامية ـ السلطانية ، ويوعز « لسليم أفندي » بمساعدة « حاتم أبو راسين » في السعي للتخلص من السلطنة والأتراك ، يجالس الأمير الحجازي « فيصل » ، ويجلس على مرج الشام بتواضع جمّ ، يعرف ما تفعل الصهيونية في أوربا وأمريكا واستنبول ويفكر في بيعهم أرضه في الغوطة ، كما فعل حموه ليتخلص من شكل استثمار الأرض ، ويفرغ باله لما سيستجد . لكنه يقلع عن الفكرة في اللحظة المناسبة ويتمنى « لسليم أفندي » التوفيق في معركته ضد الشركة الصهيونية التي حاولت شراء جزء من الأرض السورية في الغوطة .

كان يعزل نفسه في المنعطفات التاريخية لأيام كي لا يتورط سريعاً ثم يدعم ما استجد من أمور بكل قواه . يساعد الثوار على قدر استطاعته من الخواريف المحشية ، والدّفْع إلى أُسر الشهداء والمشاركة في الوفود التي تتوسط بين الشعب والفرنسيين ـ إلى استعداده لتشكيل الوزارة بعد انتهاء الثورة السورية وصلاته بإقطاعيي

(1) : انظر « بنات نعش » ص : 549 / كانت الرقة منفى فرنسي نفوا إليه كثيراً من الزعماء السياسيّين والمناضلين ، انظر : « جذور السنديانة الحمراء » . ص : 325 .

حلب وبالأمير « دشاش » و « بيجيت » الانكليزي لتمرير نفط الموصل . ويحرض « هشام الساجي » على كتابة دستور جديد للبلاد يأخذ المصالح الاجتماعية للفئات كافة بعين الاعتبار . ويعد برنامجاً جديداً للحكم

سليم أفندي البسمة : نموذج للفئة التجارية من البورجوازية الوطنية ، التي تطورت مصالحها ونمو الإنتاج الوطني ، ابتدأت من الدكاكين وامتدت إلى ملكية الأرض واستثمارها ، وانتهت إلى بناء الشركات الوطنية المنتجة . وقد حافظت طيلة مسيرتها -خلال الأشرعة وبنات نعش - على مواقفها الوطنية ووطدت علاقاتها بالقوى الفلاحية الوطنية وبالقوى العمالية الصاعدة وبالحرفيين من جهة ولم تقطع صلاتها بالفئات العليا من البرجوازية صانعة القرار تحت سلطة الاستعمار القديم (العثماني) والجديد (الفرنسي) من جهة ثانية :

« في واحد من دكاكين الحبوب في الشاغور نشأ سليم أفندي البسمة ، وحيداً بين رهط من البنات . . كانت الدكاكين تكبر بسرعة في تلك الأيام[1] ، ولما توفي والده ، كان « سليم » وأمه واضحين وحازمين فليس للبنات نصيب من الإرث « مهما ضؤل ، ومهما فعلن أو فعل أزواجهن ، وسواء نص الشرع أم العرف أم لا »[2] ، وفي عهد الدراسة المبكرة تعرف الولد إلى الدكان والحبوب والأكياس وردّد :

« يا ربنا بالمائدة	وبالرجال القاعدة
تجعل أموري نافذة	أنا وكل المسلمين »

ونفذت أمور كثيرة مما كان يحلم سليم بتنفيذها فكانت « النقلة الأولى في حياة « سليم أفندي » وازدهار تجارته . . حين قرر أن يسكن في الميدان »[3] ثم نقل الدكان أيضاً إلى

(1) - « الأشرعة » . ص : 87 .

(1) - « الأشرعة » . ص : 87 / المرددة حرفية . انظر : نعيسة ، يوسف جميل ، 1986 - مجتمع مدينة دمشق . ط 1 ، دار طلاس . ص : 659 .

(3) - « الأشرعة » . ص : 88 / كان حي الميدان من المراكز التجارية الهامة في دمشق .

الميدان ، ولم تعد تجارة الحبوب تلبي طموحه ، لقد قلّب عينيه في السوق جيداً ، عرف ما يكفي عن ألوان أخرى من التجارة ،ليس في الشام و حدها ، وكذا في بيروت وحلب ، ولم يتأخر في أن يجرّب حظه ،دون أن يتخلى عن الحبوب .

ضَمِن حقول القنّب في الغوطة ، وسال لعابه وأصابه الأسى لمّا رُوِيَ له أن حقولاً في الغوطة قد بيعت بلوح من الصابون أو بأوقية من التنباك تهرباً من الضرائب ، الأمر الذي ألوى بعنق « سليم » وجعله يفكر في شراء أرض ما في الغوطة .

التقى في بيروت « بالباشا شكيم » وعرف عنه الكثير وحاول أن يلتقي به في الشام مراراً حتى وطد صلته به وأصبح من أخلص أصدقائه ورافقه في رحلة إلى تركيا وألمانيا واندهش « سليم أفندي » بالعواصم الأوربية وتمنى أن تكون الشام مثلها . والتقى بالمثقف « هشام الساجي » زميل الدراسة القديم .

اشترى أرضاً في الغوطة ، ثم عَلِم أن هناك شركة صهيونية ترتدي ثوباً فرنسياً تشتري من أراضي الغوطة ، فبدأ معركته الوطنية الأولى ضد هذه الشركة واستطاع أن ينتصر فيها ويحقق مجداً وطنياً إضافة إلى مجده السابق في موقفه من الأتراك ودعم الاستقلال السوري ،ووضعاً طبقياً جديداً .

استأجر « سليم أفندي » « الحرزة » و « المريجانة » من « الباشا شكيم » ودقق في الحساب ببذرة المشمش وملء الكفين من الحنطة أيام الأتراك ،وعندما أزف رحيلهم وطّد علاقته بالفلاحين وغضّ الطرف . . وقَبِل بتشغيل « عمر التكلي » في دكانه إكراماً لوالدي « عمر » و « للباشا شكيم » .

وأيّد كل نضال وطني دعا إلى الاستقلال في عهد حكومة « فيصل » ،وبعدما زار مصر عاد متأثراً بثورتها وأخذ يَعدّ جموعَ المتطوعين من حي الميدان والأحياء الشعبية للثورة على الانكليز ،واستعداداً لملاقاة الفرنسيين وقتالهم ،ورفض الانتداب الفرنسي وفنّد حجج الخواجة ثابت الواهية وضحدها ،وبقي ثابتاً على مواقفه الوطنية من جهة ومعتدلاً أمام مطالب العمال والفلاحين والحرفيين من جهة ثانية .ورفض العمل مع « جمعية تخليص الشرق الأدنى »[1] التي أدارها الأتراك الكماليون بتوجيه من « برلين » ،

(1) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 503 .

كما رفض « المحفل الماسوني »[1] ، وأقبل على النادي العربي يدعم مواقف الشخصيات الوطنية .

عَمِل في تجارة البضاعة السورية المصنّعة ، وحارب استيراد كل ما يمكن للشام أن تصنعه[2] ، ودخل معركته الوطنية ـ الطبقية ، في غرفة التجارة ، مطالباً بإنشاء الشركات ذات الإنتاج الوطني ، ضد المعارضة الشديدة التي لاقاها من وكلاء الشركات الأجنبية ومَصدِّري المواد الخام المدعومين من فرنسا ، وخَسِر ، نتيجة ذلك ، مركَزه في غرفة التجارة لكنه ربح تأسيس شركة وطنية ناجحة ستكون منطلقه لجعلها شركة كاملة الإنتاج الوطني .

في غمرة اندفاعه الوطني وصعوده الطبقي لم ينس « سليم أفندي » ميوله الأولى وغرائزه فضاجع[3] « خديجة » زوجة أجيره « عبد الودود » وابنة « الحاج التكلي » وأخت « هولو وعمر » ضارباً عرض الحائط أصالته الشعبية التي تشدق بها طويلاً ، وبعدما احتل الفرنسيون الشام ووقفوا حائلاً بينه وبين طموحه الوطني والطبقي تزوج[4] من « خديجة » بعد أن طلقها زوجها ليتقرب من خلالها إلى (العامل) « هولو » وإلى جذورها الفلاحية ، وإلى الحرفي « عبد الودود » وأصدقائه « طه اليتيم » و « تيسير عبد البر » . ليساندوه في معاركه القادمة . وأسكن « خديجة » داره الجديدة في « عرنوس » ليجاور الفئات العليا من البورجوازية التي سرغان ما أعاد صلته بممثليها وبنموذجها الفني (الباشا شكيم) حيث رافقه في زيارة الأمير « دشاش »[5] استعداداً للوزارة الجديدة بعد إخفاق الثورة السورية الكبرى .

هشام الساجي : جسد « نبيل سليمان » ، من خلال تصويره الساخر لشخصية

(1) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 505 .
(2) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 514 .
(3) ـ انظر « الأشرعة » . ص : 363 .
(4) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 462 .
(5) ـ انظر « بنات نعش » . ص : 557 .

« هشام الساجي » النموذج الفني لفئة من مثقفي تلك المرحلة التاريخية ، بعض الأحداث التاريخية التي كانت ذات صلة بإطار عمله وحياته :

حصل « هشام الساجي » على شهادة دراسية كبيرة ، وورث عن أبيه خزانة الكتب والأشياء الرمزية ، وعن أمه بعض أشيائها لأنه العازب الوحيد بين أخوته .

وكان آخر عهد له بالعمل محصلاً لضريبة الأعشار في « حماه » بعد انسحابه من شعبة الاستخبارات وتعرضه لبطالة طويلة ، لذلك فقد عرف أشكالاً من زراعة الأرض واستثماراتها في المناطق السورية[1] المختلفة ، وأشكال ملكيتها وضرائبها . . . وأتاح له عمله أن يكتشف أس البلاء[2] الذي يكمن وراء تخلف الإنتاج الزراعي وظلم الناس ، وشخّصه في الملاكين الكبار من الإقطاعيين والشيوخ وأمراء العشائر . . خاصة عندما اصطدم مع « ابن الفطيم » الذي كشف له عورته وهمس : « ـ هذا هو المختار وهذان هما عضوا الهيئة الإختيارية »[3] فاندفع « هشام » من الباب لاعناً الملاكين والفلاحين معاً . وترك العمل .

وأتاح له عمله القديم في شعبة الاستخبارات الاحتفاظ ببعض الوثائق التي كشفت له تاريخ بعض الجمعيات السياسية العربية ، والأحزاب السورية : « فحزب الاستقلال قد قام ، ولكن خلف ظهره يلطو رجال الغيب ، وتقوم الجمعية السرية »[4] ، وعَدّ على أصابعه قبل أن يُسجّل في رأس ورقة جديدة الاستنتاج التالي « الجمعية إذن ثم حزب الاستقلال » و « في السطر التالي سَجّل : للحكومة باطن وظاهر . الجمعية هي الباطن والحزب هو الظاهر »[5] . ثم ذكر حزب العهد[*1] ، وجمعية العهد ، والحزب

(1) ـ انظر « الأشرعة » . ص : 338 / انظر : خير ، صفوح ، 1966 ـ غوطة دمشق . وزارة الثقافة ، دمشق . ص : 337 و 342 .

(2 ، 3) ـ انظر « الأشرعة » . ص : 340 .

(4) ـ انظر « الأشرعة » . ص : 341 .

(5) ـ الأشرعة . ص : 342 / أنشىء حزب الاستقلال العربي في دمشق سنة 1919 ليكونَ رداء لجمعية « الفتاة » التي أسست في باريس بعد إعلان دستور 1909 . ثم نُقِل مركزها إلى بيروت بعد عودة مؤسسيها الطلاب إلى بلادهم في سنة 1912 . وتولى =

(*1) ـ تابع على الصفحة التالية .

الذي يدعو إلى نظام جمهوري(*2) ،ثم شطب كل ما كتبه ومزقه .

كتب على ورقة جديدة ، وهو يفكر في المآل العابس التائه بين الفرنسيين والانكليز : « حق تقرير المصير»(1) ، وفي سطر تال كتب : « لينين » ،وهمهم مُكبِراً

= الدكتور أحمد قدري إدارة فرعها في دمشق ، فتظل سرية ويظل أمرها مجهولاً فيتولى هو (الحزب) العمل الظاهر ، وتقوم هي بالأعمال الأخرى . انظر ـ الثورة العربية الكبرى . مجلد 1 . جـ 1 . ص : 9 ـ 10 . (تاريخ الجمعية) ومجلد 2 . جـ 1 . ص : 36 (تاريخ الحزب) .

(* 1) ـ نشأ حزب العهد السوري في الآستانة خلال العهد التركي من الضباط السوريين واشترك عدد من المدنيين في أعماله انظر ـ الثورة العربية الكبرى ـ مجلدد 2 ، جـ 1 ، ص . 37 . أما جمعية العهد فقد أنشأها البكباشي عزيز علي المصري يوم 28 تشرين الثاني سنة 1913 . انظر ـ الثورة العربية الكبرى . مجلد 1 ، جـ 1 ، ص : 46 ـ 48 .

(* 2) ـ المقصود : حزب الاتحاد السوري الذي أنشىء في مصر في شهر / ك1 / 1918 .

(1) ـ الأشرعة . ص : 342 / المقصود بحق تقرير المصير هو : « الحق المشروع لكل أمة في الانفصال الحر عن المجموعات القومية والمتعددة القوميات الأخرى ، وتكوين دولتها : والتصرف بثرواتها الطبيعية وممارسة التطور الاجتماعي والاقتصادي والثقافي بحرية . كان ماركس وانجلس قد دافعا عن حق الأمم المضطهدة في تقرير مصيرها : « لا يمكن أن يكون حراً الشعب الذي يضطهد شعوباً أخرى » . وفي عام 1896 نادت بهذا الحق الأممية الثانية في قرار صادر عن مؤتمرها المنعقد في لندن . وبناء على طلب « لينين » أدرج مبدأ حق الأمم في تقرير مصيرها في برنامج حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي في روسيا عام 1903 . وبعد انتصار ثورة اكتوبر 1917 طبقه مجلس مفوضي الشعب لروسيا الاتحادية في كانون الأول 1917 على فلندة . انظر ـ معجم الشيوعية العلمية . مادة حق تقرير المصير .

وقد قصد « نبيل سليمان » من ذكر حق تقرير المصير ، ودعم أمريكا له ، كشف حقيقة دعمها الزائف لهذا الحق من خلال اقتراح الرئيس الأمريكي « ويلسون » نظام=

ثورة روسيا التي أعلنت هذا الحق . وفي سطر آخر كتب « ويلسون » ، وهمهم مكبراً مناصرة أمريكا للشعوب في سعيها إلى تقرير مصيرها ،ولكن القلم ارتد مرتجفاً ورسم في الهواء : « نظام الانتداب » ،وخرج صوت « هشام الساجي » مسموعاً : كيف ابتدع ويلسون ذلك »[1] .

أعتم قلب « هشام » ،وضج صدره بوقع الانهيار الوشيك ،و « بغتة دخلت فرنسا واندلعت النيران في سوق الحميدية من محلات سنجر حتى العصرونية ، وخان الجمرك وحاصرت الأموي ثلاثة أيام »[2] ، وطلب من صهره أن يجمع التبرعات من « الباشا شكيم » و « رضا بك الزرب » و « سليم أفندي » وغيرهم لـ « اليد الحديدية » التي تطبع الأوراق في مكان ما من الشام ، ربما في جامع الدقاق قبالته أو في آخر وكر من أوكار الغوطة أو قاسيون ،وترميها في أوكار الفرنسيين . والفرنسيون يلوبون على أثر ، دون أن يقدروا على إخفاء الذعر .

وظل « هشام الساجي » في تنظيم « اليد الحديدية » ونفّذ عملية جريئة حين « دخل مكتب المستشار الفرنسي وخرج تاركاً السكين المغروزة في الطاولة والوريقة التي كتب عليها بخط مرتجف : من استطاع أن يغرز هذا في طاولتك فهو قادر على أن يغمده في صدرك : اليد الحديدية في جميع أنحاء سورية »[3] ، وحبسه الخوف ثلاثة أيام في بيته ،وفي اليوم الرابع خرج إلى الصيدلية وعاد بأدوية مهدئة ، ثم أعاد صياغة ما كان قد نقل من كتاب الكواكبي . . وأضاف عبارة « فولتير » : في كل ما قرأت لم أر إلا تاريخ الملوك وما أريد هو تاريخ الناس ،كل الناس[4].

=الانتداب . لأن الرئيس « ويلسن » كان قد رَدّ على البرنامج الاشتراكي اللينيني للسلام بنشر بنوده الـ 14 التي كانت تستهدف خداع شعوب البلدان المستعمرة ، وشل تأثير ثورة أكتوبر فيها . انظر - تاريخ الأقطار العربية المعاصر . جـ1 . ص . 26 .

(1) - الأشرعة . ص : 343 .

(2) - بنات نعش . ص : 93 .

(3) - بنات نعش . ص : 94 .

(4) - انظر « بنات نعش » ص : 95 .

« ثم أركز عينيه وقرأ بعسر : اليوم انهارت الجمهورية المجرية السوفيتية ، ونحن اللاحقون . حاول أن يتقرّى الكلمات المشطوبة التالية فأعجزته . تابع في السطر التالي : إن حكومة لينين وأصدقاءه والثورة الكبرى التي فجروها من أجل تحرير الشرق من نير المستبدين الأوربيين يعتبرهم العرب بمثابة قوة عظمة قادرة على منحهم السعادة والحرية الكريمة . إن السعادة والسلم في العالم أجمع يتوقفان على تحالف العرب مع البلاشفة - لجنة الاتحاد العربي . وفي أسفل الصفحة قرأ : لا قوة في الأرض تقدر على أن تمنحنا السعادة إلا زنودنا . لا قوة ما دُمنا عاجزين - هشام الساجي »[1] . ثم قرأ بصوت مسموع ما كان قد سجله - وأدخل عليه تعديلاً - من نداء مؤتمر « باكو » : يافلاحي سورية وشبه الجزيرة العربية ، كتب ياأهل الشام والجزيرة والعراق . . واختلط عليه ما حفظ أو قرأ من النداء بما كتب وتابع : الفرنسيون والانكليز وعدوكم بالاستقلال ، ولكنهم بدلاً من ذلك احتلوا بلادكم واستعمروكم . كنتم عبيداً للسلطان ، وكسرتم أغلال العبودية ، وساعدتم الانكليز والفرنسيين والألمان ، فصرتم اليوم عبيداً لحكومة باريس وحكومة لندن . باريس أو لندن لن تفعل في بلادكم اليوم ما لم يفعله السلطان »[2] أمسك القلم متأثراً وحاول أن يتوعد الانكليز والفرنسيين كما توعد ذات يوم الطليان . وامتلأت الغرفة بأصداء المتظاهرين :

« يا طلياني يا ابن الكلب   مين قللك تنزل على الحرب
سمعت بصوت العثملي   صرت تعوي مثل الكلب
عو عو عو

شطب القلم ما كتب . . وتابع القلم ملوحاً بالثورات التي اندلعت في العراق ومصر والمغرب ، ثم حرن حتى جعل هشام يرميه أرضاً ويجرّ نفسه إلى الفراش[3] وفي الأيام

(1) - « بنات نعش » . ص : 96 .
(2) - بنات نعش . ص : 97 .
(3) - « بنات نعش . ص : 97 / المقصود : ثورة العراق 1920 . وثورة مصر 1919 وثورة المغرب 1921 - 1926 .

التالية انصرف وراء كتب الإمام العلامة الهمام سيدي محمد النفزاوي ، رحمه الله ورضي عنه ، وقرأ هشام كتابه « الروض العاطر في نزهة الخاطر » وخرج يفكر في أن يؤلف[1] كتاب النفزاوي الثاني « تنوير الوقاع في أسرار الجماع » بعد أن أعياه السعي خلفه إلى حلب وبيروت ، وعيناه تتحاشيان أي أثر « لمسلّم دحة »[*] أو للفرنسيين .

بعد انتهاء الثورة السورية الكبرى ،وبإيعاز من « الباشا شكيم » هيأ نفسه لإصدار العدد الأول من جريدته « التي لم تستقر على اسم لها بعد ،على الرغم من أنه باع كل ما يملك « لعارف بك » ، واشترى طابقاً صغيراً في الحجاز ، كي يكون مقراً للجريدة الموعودة »[2] لأنه أيقن ـ مثل الباشا شكيم ـ أن منعطفاً جديداً بدأ للشام ، بعد أن أخفقت محاولاتها في النهوض ،بغض النظر عن اختلافاتها فيها سيستجد خلال المرحلة الجديدة .

ولما انشغل الباشا بتشكيل الوزارة « انشغل هشام بدستور المملكة السورية يستنبط ما سوف يحض عليه منذ العدد الأول من الجريدة حكومة الأفق الجديد »[3] وبدل كلمة المملكة في المادة الأولى من الدستور بكلمة الجمهورية ،وكلمة الملك بكلمة الرئيس . . وتابع تبديل بعض من فقرات دستور المملكة ، وإضافة ما رآه مناسباً[4] . . ثم أزاح الأوراق التي كتب والدستور الملكي جانباً وهجس أسيان : ما أضرط من الحبر إلا الورق »[5] .

بعد أن وصلت صناديق الحروف وأدوات الطباعة ولم يبق إلا أن يأتي هشام بالعمال وماسوف يطبع وضع شعاراً لجريدته : الدين لله والوطن للجميع »[6]وأعطته

(*)ـ عميل لفرنسا في الرواية .

(1)ـ انظر ـ « بنات نعش » ص : 99 .

(2)ـ « بنات نعش » . ص : 565 .

(3)ـ « بنات نعش » . ص: 567

(4 ، 5)ـ « بنات نعش » . ص : 568 .

(6)ـ « بنات نعش » . ص : 569 .

« لميعة » قصاصة مترجمة عن إحدى مسرحيات شكسبير فيها إسقاط تاريخي على « عصر هشام » والمرحلة التاريخية : « المدن تنمو ، العمال يكثرون ، التجار والطلاب ، الرأسمال الأجنبي يحكمها ، الإقطاعيون لا يعرفون الساحات التي يملكونها ، الفلاحون يرحلون دوماً ، وليس البدو فقط »[1] ذكرته القصاصة « على مشارف الأفق الجديد أنه رجل يوشك أوانُه أن يمضي »[2] .

بعد فترة قصيرة صدر العدد الأول من جريدة هشام الساجي « الألف ياء » ولاقت رواجاً طيباً على الرغم من أنه لم ينشر فيها بعد مقالاً كاملاً واحداً ، واختار لأحد مستطيلات الجريدة أنشودة الشيوعيين التي مضى على نشرها سنة ونيّف ، وتصرف في نصها الأصلي ولما حاسبته الرقابة نشر نصاً من جريدة أخرى حافظ على حرفيته فاستدعته الرقابة ثانية فقرر إيقاف الزاوية . ثم ضاعت عليه فرصة ذهبية لأنه لم يحضر الحفل الذي دعا إليه الأميرُ « دشاش » وخصّ جريدته به دون غيرها ، ولمّا علم هشام نبأ ما جرى في الاحتفال ، إذ أصيب الأمير « دشاش » بعينه وقتل بعض المدعوين قرر السفر للتحقيق والتأكد من هوية الفاعلين ، وانتهى الأمر لديه أن « نافع الصوان » وجماعته هم من فعلوا ذلك ، لكنه لم يتجرأ على نشر الخبر .

جـ ـ المقبوسات والأمثال والأغاني والتقاليد :

أ ـ المقبوسات : أفاد « نبيل سليمان » من المراجع المتنوعة التي اطلع عليها ، قبل كتابة الرواية ، وأثناء كتابتها . فاقتطف بعض المقبوسات التي حافظ على حرفية النص الأصلي لقليل منها ، وعدل بعضها ، وحور مضامين بعضها ، ولخص ، بأسلوبه الخاص ، بعضها الآخر . . ووظف ذلك كله في خدمة عناصر روائية عديدة .

لكن ليس من السهولة أن يلتقط القارىء ، أو الباحث ، مقبوسات رواية « مدارات الشرق » لأنها منسجمة عضوياً وسياق النص ، وتشكله في موضعها ، ولأنها متسربة ضمن كثافة من الأحداث التاريخية المعالجة فنياً . أضف إلى ذلك ، أن الروائي

(1 ـ 2) ـ بنات نَعش ص 569 .

لم يكثر من المقبوسات الحرفية ، ولم يشر إلى مصدر أيّ منها في هوامش الرواية ، ولم يميّزها ، في سياق النص الروائي بعلامة تنصيص ، أو بما يدل عليها .

وقد اتسمت المقبوسات التي التقط الدارس خيوطاً منها بتنوع أشكالها ومضامينها : فمنها مقبوسات حرفية مثل التي أوردها الروائي حين قرأ « هولو » نص الفتوى[1] التي بررت إعدام شهداء السادس من أيار . ومثل نص عقد المغارسة[2] الذي نظم علاقة أرض ، أم مرعي ، بين « ياسين الحلو » وبين « رستم آغا » في إقطاعية « الزنبقلي » ، ومثل النص الذي أخذه الروائي مما كتبته لجنة توحيد العرب وسجله « هشام الساجي » على أوراقه[3] . ومثل اقتطاف شعار مؤتمر باكو[4] عندما قارنه « عزيز اللباد » مع الشعار الذي حملته جريدة حزب الشعب اللبناني (الإنسانية) . ومثل المقتطفات النثرية والشعرية التي استخرجها « هشام الساجي » من كتاب « السيوطي » . ومثل الأشعار والأهازيج الوطنية[5] ، والأغاني .

ومنها مقبوسات أدخل عليها الروائي بعض الإضافات ، والتعديلات ، أو الحذف أو التقديم والتأخير . مثل الذي أدخله « هشام الساجي » على نداء مؤتمر باكو[6] ، وعلى نصوص دستور المملكة عندما حولها إلى نصوص جمهورية[7] ، وعلى نص

(1) ـ انظر ـ الأشرعة . ص : 72 .

(2) ـ انظر ـ الأشرعة . ص : 229 .

(3) ـ انظر بنات نعش . ص : 96 / قارن مع ـ تاريخ الأقطار العربية المعاصرة . جـ1 ، ص : 32 .

(4) ـ انظر ـ بنات نعش . ص : 571 ـ 573 / قارن مع ـ الشريف ، ماهر ، 1989 ـ الكومنترن والقضايا العربية ـ مجلة النهج ، ع 25 ، ص : 97 ـ 98 .

(5) ـ انظر ـ الأشرعة . ص : 109 و 143 و 343 و 344 ، وانظر ـ بنات نعش . ص : 571 ـ 573 .

(6) ـ انظر ـ بنات نعش . ص : 96 ـ 97 / وقارن مع ـ الشريف ، ماهر ، 1989 ـ الكومنترن والقضايا العربية . مجلة النهج ، ع 25 . ص : 98 .

(7) ـ انظر ـ بنات نعش . ص : 547 .

أنشودة الشيوعيين ومثل النص التالي المقبوس الذي ردده « سليم أفندي البسمة » حين زار استنبول مع « الباشا شكيم » ، وقد تضمن ألقاب السلطان « عبد الحميد الثاني » :

النص المقبوس ضمن سياق النص الروائي	النص الأصلي للمقبوس
أنسته استنبول مشقة السفر ، فها هو وجها لوجه أمام مدينة (بدأ المقبوس) الخليفة المعظم ، إمام المغربين والمشرقين ، ظل الله في العالم ، ناصر الشريعة الغراء ، وناشر ألوية الطريقة السمحاء ، خادم الحرمين الشريفين . (انتهى المقبوس) وإذ انطلق بهذا السيل مما يحفظ من ألقاب السلطان المعزول غرق الباشا في الضحك »[1] .	أبو الهدى الصيادي وصف عبد الحميد بأنه : « الخليفة المعظم ، ظل الله في العالم ، وارث سرير خلافة سيد المخلوقين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ناصر الشريعة الغراء ، وناشر ألوية الطريقة السمحاء ، خادم الحرمين الشريفين ، أمام المشرقين والمغربين »[2] .

يستنتج من خلال المقارنة بين نص المقبوس ضمن سياق النص الروائي وبين النص الأصلي للمقبوس ما يلي :

1 ـ الانسجام العضوي بين المقبوس وبين السياق الروائي . وقد تجلى ذلك في انسجام المضمون وفي التركيب اللغوي النحوي بين المضاف (مدينة) آخر كلمة في السياق ، وبين المضاف إليه (الخليفة) أول كلمة في المقبوس .

2 ـ قدم الروائي جملة « إمام المشرقين والمغربين » من آخر النص الأصلي ،

(1) ـ الأشرعة . ص : 101 / قارن مع ـ امن الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان . ص : 25 .

(2) ـ حنا ، عبد الله ـ من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان . ص : 25 .

وجعلها الجملة الأولى في النص الروائي ، ووضعها بين الجملة الأولى « الخليفة المعظم » التي تغير موقعها في الإعراب ، وبين الجملة الثانية « ظل الله في العالم » . لتتلاءم مع الحالة النفسية للمسافرين من الشرق العربي إلى الغرب الأوربي .

3 ـ حذف الروائي من النص الأصلي جملة « وارث سرير خلافة سيد المخلوقين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم » ليتلاءم مع الأسلوب الساخر في السياق الروائي ، (إذ ليس من الحكمة أن يرد اسم الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم في مثل هذا المكان) .

ومنها مقبوسات لم يبق الروائي منها إلا خيوطاً قليلة ،مثل الإشارة التي تعارف بها أعضاء الجمعية القحطانية ، انظر الجدول :

نص الرواية	النص الأصلي
. . يلقي بالسلام ، تتصافح الأيدي ، ويضع الطربوش الأصبع والشاهد على هذا الذراع وذلك الذراع ،يلفظ حرف الهاء يردّ صوت باللام ، يلفظ حرف الألف ، يرد صوت باللام أيضاً ، هلال هو إذن ،والأمان هو إذن . . ».[1]	وكانت الإشارة الرمزية بين أعضاء الجمعية هي أن يضغط المسلم على أحد أصابع يد المسلم ثم يضع الشاهدة والوسطى على الذراع الأيسر ويخفي بقية الأصابع ويهجي كلمة« هلال » عند المحادثة فإذا قال الأول هاء قال الثاني لام ثم يقول الأول آلف فيقول الثاني لام »[2]

ومنها مقبوسات لخصها الروائي في الرواية بأسلوبه الخاص ،مثل تلخيصه للعلاقة بين السياسيين السوريين المقيمين في مصر آنذاك وبين المصريين الذين كانوا

(1) ـ الأشرعة . ص : 330 / قارن مع ـ الثورة العربية الكبرى ، مجلد1 ،جـ1 ، ص : 10 .

(2) ـ نفسه . ص : 10 .

يتهمون[1] السوريين بالعمالة للانكليز . ومثل تلخيص مأساة الشعب الأرمني وتصوير مشاهد القتل والذبح والتعذيب والخنق والتهجير التي لاقاها[2] من الأتراك . ومثل الإشارة إلى أول احتفال بعيد العمال[3] ، ومثل تسجيل قرارات المؤتمر الفلسطيني[4] ، ومثل ذكر بعض أخبار المسرح السوري[5] ، ومثل تلخيص تاريخ بعض العشائر[6] ، ومثل تلخيص أسطورة كوكب الزهرة[7] .

ب ـ **الأمثال** : وظف « نبيل سليمان » طيفاً واسعاً من الأمثال المتنوعة المضامين واللهجات في الرواية من خلال السرد : على لسان الراوي ،وفي الحوار ، وفي المونولوجات . .

وقد حافظ الروائي على حرفية كثير من الأمثلة ،عندما كان السياق الروائي يستدعي المحافظة عليها . من ذلك المحافظة على المثل الشعبي : « سنة القطا بتبيع الغطا »[8] الذي قالته « أم هولو » المرأة الفلاحة حين رأت سرباً من الطيور ، بعام الجفاف 1913 ، وبالحرب العالمية الأولى 1914 ، ورَدَّ عليها زوجها « الحاج » : « فال الله ولا فالك »[9] . وعلى المثل الشعبي « أول مرا مرمره ، وثاني مرا سكره ، وثالث مرا عنبره ،ورابع مرا ع المقبرة »[10] . الذي قاله « راغب الناصح » واصفاً حاله بعد أن

(1) ـ انظر ـ الأشرعة . ص : 348 .

(2) ـ انظر ـ الأشرعة . ص : 407

(3) ـ انظر ـ الأشرعة . ص : 433

(4) ـ انظر ـ الأشرعة . ص : 441 .

(5) ـ انظر بنات نعش . ص : 103 .

(6) ـ انظر ـ بنات نعش . ص : 138 و 305 .

(7) ـ انظر ـ بنات نعش ـ ص: 102

(8) ـ انظر ـ الأشرعة . ص : 60 .

(9) ـ انظر الأشرعة . ص 61 .

(10) ـ انظر بنات نعش . ص : 159 .

خطف « دهيبة » بوصفها ثالثة زوجاته . والمثل الشعبي « ما حك جلدك مثل ظفرك »[1] الذي استخدمه « ابن الأكاشي » تعبيراً عن وطنيته وقوميته العربية ، ناطقاً إياه باللغة الفصحى . .

ونوع الروائي في بعضها وأصبحت جزءاً من السياق الأسلوبي ، مثل « كفرلالا . . هربت من دُبّ ابن البزار وقعت في جب الشيخ منصور »[2] ، وأدخل بعضها في أدوات الربط الفنية مثل « جبل مع جبل ما بيلتقي ابن آدم وابن آدم بيلتقي »[1] ، وحور بعضها على لسان الشخصيات الفنية أو نسبها إليها ليميز هذه الشخصيات ، مثل تحوير « عمر التكلي » لبعض الأمثال التي أصبحت تنسب إليه بين التجار « الغزالة الشاطرة بتغزل على دنب كلب ، وبدلاً من قال العطار لابنه ،قال عمر لعمر : شوف الزبون واعطيه على شكلو »[4] . كما وظف الروائي الأمثال ضمن الأغاني مثل :

« نصحتك ما انتصحت وطبعك على الردى غالب
ودنب الكلب أعوج ولو حطوه بألف قالب »[5]

أو وظفها مكثفة في مكان واحد ،مثل « الغربة كربة ، والغريب لازم يصير أديب ، والغريب أعمى ، ولو كان بصير »[6] التي رددها « عمر التكلي » أثناء متاجرته بالسلاح في كيليكيا .

جـ ـ **الأغاني والأهازيج والهداهيد** : وظف « نبيل سليمان » عدداً من الأغاني والمحفوظات والأهازيج والهداهيد . . التي أعطت للحظة الروائية عمقها الكامل .

(1) ـ انظر ـ الأشرعة . ص : 53 .
(2) ـ انظر ـ الأشرعة . ص : 24 ـ 25 .
(3) ـ انظر ـ الأشرعة . ص : 179 . وانظر ـ بنات نعش . ص : 171 .
(4) ـ انظر ـ الأشرعة . ص : 149
(5) ـ انظر ـ الأشرعة . ص : 46 .
(6) ـ انظر ـ الأشرعة . ص : 150 .

مثل المحفوظة التي اعتاد « سليم أفندي البسمة » أن يرددها على مسمع أبيه التاجر في الدكان :

يا ربنا بالمائـدة وبالرجال القاعـدة
تجعل أموري نافذة أنا وكل المسلمين »[1]

وقد وظفها الروائي ليعكس من خلالها أجواء أصحاب الدكاكين وطموحاتهم . ومثل الهدهودة ذات المضمون الشعبي الفقير التي رددها « اسماعيل معلا » تعبيراً عن واقع شظف العيش الذي يعاني منه ،والذي عاناه الشعب السوري أيام العثمانيين من دفع الضرائب ومن التجنيد الإجباري ـ عندما كان يَدْرُسُ القمحَ على البيدر ، وقد افتتح الروائي الفصل السادس عشر بذكرها ، ثم كررها كرابط فني :

« نيّالك ياقط ع البيدر بنتـط
عسكر مابتلبس كروسي ما بتحط »[2]

ومثل الأغنية الصريحة التي انطلقت بها حنجرة « أم نورالدين » عندما ضاجعت « عمر التكلي » أول مرة . منها :

مديت إيدي ع الفـخاذ سيدي الفخاذ
ردت لي إيدي وياسيدي مـلنا سوى »[3]

وقد وظفها الروائي لإلقاء أضواء جديدة على شخصية « عمر التكلي » ، وأضواء أخيرة على شخصية « أم نورالدين » .

أو مثل الأغنية الشعبية الجميلة التي غناها « العم حاتم » لـ « نجوم الصوان » بعد ثلاثين سنة قرر « العم حاتم » أن يكون متعداً خلالها عن المرأة كرمى لزوجته « شمّاً » التي ذبحها الأتراك ، وبعد صبر طويل على حبه لـ « نجوم » . وقد أضفت الأغنية على المشهد الروائي سمة إنسانية وعاطفية عميقة حين صوّر الكاتب « العم

(1) ـ بنات نعش . ص : 88 .
(2) ـ الأشرعة . ص : 231 و 236 .
(3) ـ بنات نعش ، ص : 61 .

حاتم » و « نجوم » على خلفية نهر العاصي وأشجاره « . . تعرّجت بهما الخطى بين شجيرات البطم والعرموط ، حتى أوقفهما العاصي ، فسارا بموازاته ، ينتران أغصان الصفصاف المتدلية حتى الأرض ،ومن حنجرته ينفلت الوجع :

هيهات يابو الزلف　　عيني ها البنيّة
صفصاف لا تنحني　　شرشك على الميّة

وكانت معه تغمغم ، ترفع رأسها مشوقة ، تسوق نفسها فوق النهر حتى أنساق الحور على الضفة الأخرى ،تتسلق القامات النحيلة الباسقة الملساء . . »[1] .

ووظف الكاتب بعض الأغاني المحورة التي تنسجم مع الحدث الروائي . مثل الأغنية الحلبية التي رددها « وليف » ابن كسب الذي هام بحلب ـ السياسة :

ياويلي ويلي من جمال وأنور　　خلو العالم سبع سنين تتمرر
شنقوا اللي شنقو بأول عمنول　　يشنقهم ربي هالعالي الفوقاني »[2]

وهذه الأغنية من قد (ماني ياحبيب ماني) ، وبحلب ـ الحبيبة التي أحبها « وليف » وكانت فتاة مسيحية ،وكم تمنى أن يتزوجها ، لذلك ردّد الهلهولة التالية :

اى ها دقت الطبول والزمر غنى لها
اى ها ياحلا عروستنا ويامكوس دلالها
اى ها ياست الحسن اجت من اكليلها
اى ها وعشرين من الصبايا شاقليلها ديلها »[3]

وقد تقصد الروائي ذكر هذه الهلهولة كي يبعد عن « وليف » أية مسحة من التطرف قد تشي به أغنيته المحورة الأولى ،ولكي يذكر بشيء من هلاهيل المسيحيين في حلب . ومن هذا القبيل ذكر ببعض الأغاني الفلسطينية الشعبية ليعكس من خلال ذلك الأجواء المختلفة للمناطق السورية والمؤتلفة عبر الفولكلور المتنوع الجميل . وقد غنى

(1) الأشرعة . ص : 410 .
(2) ـ بنات نعش . ص : 284 .
(3) ـ بنات نعش . ص : 295 .

صديق « هولو » الفلسطيني على مسمع « هولو » هذه الأغنية :

حن الحبيب على حالي وأنت ما حنيت
لو كنت تعلم بـحالي ياولـد جنيت[1]

ثم أفشى سر مرضه إلى « هولو » بأغنية ثانية :

حبيبي عاشق وأبوه عاشق وأخوه عاشق

راحوا يجيبوا الطبيب لاقوا الطبيب عاشق
دس المفاصـل قال لـي يـا ولـد مـالـك
مـجـروح جـرح لـهـوى اللي جارحك عاشـق »[2]

د ـ **العادات والتقاليد** : وظف الروائي العديد من العادات والتقاليد في الحدث الروائي حسب المنطقة والمناسبة ليضفي سمة تاريخية على الرواية ومصداقية واقعية مثل عادات الزواج التي وصفها عندما حلم « فياض العقدة » بالزواح من « نجوم الصوان » :

« لصق العجين ، ورفع الجرن ، وإرضاء الأقارب . . »[3].ومثل وصف ال عرس « الجركسي »[4] ورقصة الخنجر ، ومثل وصف أماسي « العال » : « الشاعر والربابة »[5] ، ومثل النذور[6] التي تقطعها النساء للأولياء كي يحبلن ،وقد قامت « حسن » زوجة « هولو » بذلك . ومثل وصف « خميس المشايخ »[7] في حمص . ومثل

(1) ـ بنات نعش . ص : 424 .
(2) ـ بنات نعش . ص : 425 .
(3) ـ« الأشرعة » . ص : 212 .
(4) ـ « الأشرعية » . ص : 262 ـ 263 .
(5) ـ « الأشرعة » . ص : 273 .
(6) ـ « الأشرعة » . ص : 313
(7) ـ « الأشرعة » ص : 391 .

عادات البدو في الغناء[1] . ومثل طقوس الحمّام[2] في الشام وزيارة « الست زهرة » للحمام . ومثل الاعتقاد « بالمقام البهائي »[3] و « السيد الجباوي »[4] ومزار « الشيخ القادري »[5] ومثل لعب الأطفال « بس بس نو »[6] ، وبلع الحوت للقمر[7] وأدعية « حمادي الحسون » والأساطير البحرية[8] ، وخلق الكون . . .[9]

الخلاصة : إن التوظيف الفني للأغاني والأمثال والعادات والتقاليد وأنماط التفكير الخرافي ،أضفى على رواية« مدارات الشرق »سمة تاريخية واقعية شعبية تنوعت مع تنوع (الموزاييك) الاجتماعي في مناطق سورية الطبيعية المختلفة ،وأعطاها روحاً شعبية غنية ، وأصالة أبرزت خصائصها المحلية ،وعوضت (كبديل فني) عن أسماء الشخصيات التاريخية الرسمية ،وعن ذكر الأرقام وتواريخ الأحداث ،والوثائق الحرفية . .

اللغة والتاريخ :

عبرت لغة رواية « مدارات الشرق » عن العالم اللغوي ـ للمرحلة التاريخية التي عكستها الرواية فنياً ـ المنسجم في شكل نطقه ، المتنوع تنوعاً مدهشاً في مضامينه

(1) ـ «الأشرعة » . ص : 458 .
(2) ـ « بنات نعش » ص : 104 .
(3) ـ « بنات نعش » ص : 326 .
(4) ـ « بنات نعش » ص : 154 .
(5) ـ « بنات نعش » ص . 80
(6) ـ « بنات نعش » ص : 239 .
(7) ـ « بنات نعش » ص : 315 .
(8) ـ « بنات نعش » ص : 343 .
(9) ـ « بنات نعش » ص : 549 ـ 550 .

الاجتماعية والإنسانية : أي إنها ذات مستويات متعددة تعدد الفئات الاجتماعية « الممنذجة » فنياً في الرواية من جهة ،ومن خلال لغة كل إنسان كشخصية فنية واحدة (متفردة في حياتها الخاصة بهمومها وبفرحها ، وبحزنها ،وبيأسها ،وحلمها ،بواقعها ، وبوهمها ،وبعشقها ، وبتغيرها ، وبتطورها ، أي : في تفرد مصيرها ، مرتبطة بعلاقة جدلية - حتماً - في مجتمعها أو في عصرها ، أو - بالأحرى - في التاريخ . أي : في التشكيلة الاجتماعية لسورية الطبيعية المحددة بـ (زمان الرواية وزمنها الروائي) وهي مع ذلك تتصف (بانسجام في النطق وتنوع في المضامين) يتجلى في الشكل اللغوي المنطوق للأحداث التاريخية (كتجريد جزئي)الكثيرة جداً الرئيسية والثانوية ، حيث صاغها الروائي منسجمة مع غيرها من جزئيات الحدث الروائي ،حتى مع اللغة المنطوقة في أدق اللحظات الخصوصية لأي شخصية فنية . حتى مع اللغة المنطوقة في الأغاني والأهازيج والشعر والأمثال الموظفة في الرواية . حتى مع اللغة المنطوقة في مختلف المناطق السورية .

كما يتجلى أيضاً في انسجام الشكل اللغوي المنطوق للشخصيات الفنية : فالشكل اللغوي المنطوق لأمير الحج المتزمت ،نموذج السقوط التاريخي ، منسجم مع الشكل اللغوي المنطوق للخواجة ثابت ، وبديع الطارة ، وحسن ،وهولو ،وعزيز ، وتيسير عبد البر ، والعم حاتم ، ونجوم ، وفياض . وحتى مع الكردي « سفلو » النجار ومع الأرمنية « شيا »

الشكل اللغوي المنطوق في اجتماعات المؤتمر السوري التي ناقشت قضايا الوطن السياسية والاقتصادية . . وقررت السياسة العليا للمجتمع . . ينسجم مع الشكل اللغوي المنطوق للعبدين « هفل » و « حمود » و « غنيم الفرس » والمثقف « هشام الساجي » .

مراجع رواية « مدارات الشرق »(*) :

احتوت قائمة مراجع رواية « مدارات الشرق » على مئتين وأحد عشر مرجعاً ، وأعداد متفرقة من ست مجلات عربية ، وثمان جرائد ، وقد ضمت القائمة مراجع ممتازة ، ومتنوعة وزعها الطالب حسب موضوعاتها ، ومنها :

المراجع التاريخية :

- مذكراتي عن الثورة السورية ـ فائز الغصين .
- مذكرات راشد الكيلاني .
- مذكرات خالد العظم 1 ـ 3 .
- مذكرات بشير العظمة .
- مذكرات طه الهاشمي ـ خلدون ساطع الحصري .
- أوراق عادل ونبيه العظمة ـ خيرية قاسمي .
- أوراق فارس الخوري جـ 1 .
- أوراق قومية ـ مذكرات الدكتور عبد الله سعادة .
- مذكرات وتسجيلات ـ محمد عزة دروزة .
- ذكريات لطفي الحفار ـ وجيه بيضون .
- صفحة من الأيام الحمراء ، مذكرات القائد سعيد العاص .
- مجموعة الشهادات ـ والمذكرات ـ جميل الشقيري .
- الحركات الفلاحية د . عبد الله حنا .
- حركات العامة الدمشقية . د . عبد الله حنا

* أخذت قائمة المراجع من الروائي نبيل سليمان أثناء مقابلة .

- عبد الرحمن الشهبندر . د . عبد الله حنا
- الحركات العمالية في سورية 1900 ـ 1945 د . عبد الله حنا
- تاريخ الفلاحين 1 ـ 5 .
- الحركة العربية ـ سليمان موسى .
- ثورة العرب ـ أسعد مفلح داغر .
- الآثار الكاملة ـ أنطون سعادة
- سورية والعهد الفيصلي ـ يوسف الحكيم .
- سورية والانتداب الفرنسي ـ يوسف الحكيم .
- تاريخ سورية في العصور الحديثة ـ نادر العطار .
- تاريخ الحركة النقابية والعمالية في لبنان 1908 ـ 1946 ـ الياس خوري .
- تاريخ لبنان الاجتماعي ـ مسعود ضاهر .
- سورية من الاحتلال حتى الجلاء ـ نجيب الأرمنازي .
- الحرب الوطنية التحررية في سورية ـ لوتسكي .
- تاريخ الأقطار العربية الحديث ـ لوتسكي .
- تاريخ سورية الحديث ـ د . الأشرفي .
- تاريخ الأقطار العربية المعاصر 1 ـ 2 مجموعة مؤلفين سوفييت .
- صفحات من تاريخ الأمة الأرمنية ـ عثمان الترك .
- سورية 1916 ـ 1946 ـ وليد المعلم .
- سورية 1945 ـ 1958 ـ وليد المعلم .
- تاريخ سورية ـ علي سلطان .
- الصراع على سورية ـ باتريك سيسل .
- الصراع في سورية ـ بيير بوداغوفا ـ ترجمة : ماجد علاء الدين .
- الثورة العربية الكبرى 1 ـ 3 ـ أمين سعيد .

المراجع السياسية :

- المحررات السياسية والمفاوضات الدولية 1 ـ 3 ـ فيليب الخازن .
- الحياة الحزبية في سورية ـ محمد حرب فرزات .
- الحركة الطورانية ـ جهاد صالح .
- الحركة القومية في سورية ـ نجاح محمد .
- السياسة الخارجية السورية .
- التاريخ النضالي للحركات الطلابية في القطر العربي السوري ـ حسين الابراهيم .
- الماسونية والماسونيين في الوطن العربي ـ حسين عمر حمادة .
- الأخوان المسلمون 1 ـ 4 .
- الماسونية في العراء ـ محمد علي الزعبي .
- خمسون عاماً على الشيوعيين في الشرق الأوسط ـ رسلان شرف الدين .
- الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ـ سهيل أيوب .
- نضال البعث .
- الحزب الشيوعي السوري ، تاريخه ، مخازيه ، مؤامراته ـ مصطفى طالب .
- قضايا الخلاف في الحزب الشيوعي السوري .
- وثائق المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي السوري .
- مساهمة في نقد الحركات السياسية في سورية ولبنان ـ نذير جزماتي .
- الشيوعية في الميزان ـ وجيه بيضون .
- تاريخ الحركات الاشتراكية في مصر ـ رفعت السعيد .
- حكاية أول نوار ـ يوسف ابراهيم يازبك .
- طريقي إلى الحزب ـ نقولا شاوي .
- مصطفى العريس يتذكر .

- جذور السنديانة الحمراء ـ محمد دكروب .
- الأممية الشيوعية وفلسطين ـ ماهر الشريف .

المراجع الاقتصادية :

- أضواء على الرأسمال الأجنبي في سورية ـ د . بدر الدين السباعي .
- حكاية الأرض والفلاح ـ بو علي ياسين .
- القطن وظاهرة الإنتاج الأحادي ـ بو علي ياسين .
- التوسع الاقتصادي للولايات المتحدة الأمريكية في البلدان العربية ـ أ . ى . أوسيبوف .
- النفط مستعبد الشعوب ـ يوسف ابراهيم يازبك .

المراجع الأدبية والفنية :

- تاريخ المسرح السوري ـ وصفي المالح .
- الأزياء الشعبية وتقاليدها في سورية ـ حسن حمامي .
- الحكم والأمثال الشعبية في الديار الشامية ـ محمد سعيد مبيض .
- أمثال وتعابير شعبية من السويداء ـ سلامة عبيد .
- زينة الكلام في دمشق الشام ـ محي الدين قرنفلة .
- المعتقدات الشعبية في التراث العربي ـ محمد توفيق السهلي وحسن الباش
- الألعاب الشامية ـ ماجد اللحام .
- يامال الشام ـ سهام ترجمان .
- الأغنية الشعبية الفلسطينية ـ حسن الباش .
- رموز وطقوس ـ جان صدقة .
- جغرافيا الوهم ـ حسني زينة .

- ياشام في التراث الشعبي الدمشقي - منير كيال .
- المعتقدات والخرافات الشعبية اللبنانية -راجي الأسمر .
- موسوعة الفولكلور والأساطير العربية - شوقي عبد الحكيم .
- حلبيات - عبد الله يوركي حلاق .
- حديث دمشق - نجاة قصاب حسن .
- قصة السينما السورية - رشيد جلال .
- واقع السينما السورية - فتيح عقلة عرسان .
- النقد الأدبي في سورية - نبيل سليمان .

المراجع الخاصة بالقضية الفلسطينية :

- وثائق فلسطين - منظمة التحرير الفلسطينية .
- قضية فلسطين - نجيب صدقة .
- الشيوعية الأممية وفلسطين - ماهر الشريف .
- عصبة مكافحة الصهيونية في العراق - عبد الطيف الراوي .
- رؤية إسلامية في الصراع العربي الاسرائيلي / ج 1 / . .
- مؤامرة الدويلات الطائفية على فلسطين - محمد بن عبد الغني النواوي .
- النشاط الصهيوني في العراق - صادق حسن السوداني .
- حرب المياه في الشرق الأوسط - محمد سعيد الموعد .
- اسرائيل والمياه العربية - عفيف البزري .
- عرب ويهود - سامي الجنيد .
- يهود الشام - يوسف نعيمة .

مراجع البلدان والفئات الطائفية والأماكن الأثرية .

- تاريخ معرة النعمان ـ محمد سليم الجنيد .
- دمشق تاريخ وصور ـ قتيبة الشهابي .
- تاريخ حمص 1 ـ 2 ـ منير الحموي وعيسى أسعد .
- تاريخ بيروت ـ عصام محمد شبارو
- دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية ـ أحمد غسان سبانو .
- ربوع محافظة حمص ـ عماد الدين الموصلي .
- مدينة دمشق ـ د . صفوح الخير .
- مدينة دمشق ـ د . عبد القادر الريحاوي .
- دمشق الشام ـ جان سوفاجيه .
- المختصر في تاريخ اللاذقية ـ جبرائيل سعادة .
- اقليم الجولان ـ صفوح الخير .
- تاريخ العلويين ـ محمد غالب الطويل .
- العلويون ، من هم ـ منير الشريف .
- المباني الكنعانية ـ نمر سرحان .
- أسواق دمشق القديمة ومشيداتها ـ قتيبة الشهابي .
- الجولان ـ أديب سليمان باغ .
- الدليل الرسمي لمعرض دمشق وسوقها .
- نهضة الأوقاف الإسلامية بدولة سورية ـ دائرة الأوقاف 1931 .
- سكك حديد الدولة السورية ـ نظام الشركة .

المجلات والجرائد :

- المجلات

- دراسات تاريخية .
- الهلال
- النهج
- الطريق .
- دراسات اشتراكية .
- العمران .

- الجرائد .

- نضال الفلاحين
- الاشتراكي
- الأخبار
- بردى
- الرأي العام
- النصر
- البعث .
- نضال الشعب .

لقد ساعد تنوع المراجع ، وامتيازها ، الروائيَّ في التقاط جوهر الأحداث التاريخية المختلفة ، وأمده بمعطيات متنوعة ـ (أفاده في المقبوسات الحرفية وغير الحرفية ، وفي وصف الأمكنة والألبسة . . .) انعكست فنياً في التصوير الواقعي الشامل للمرحلة التاريخية المحددة بزمان رواية « مدارات الشرق » : وفي تصوير الشخصيات الفنية التي ولدت من عصرها ولادة طبيعية ، ونمت فيه نمواً طبيعياً ، وعاشت فيه ، قضاياه وقضاياها ، بكل كياناتها ، ووضعت فيه كامل قدراتها ، وبذلت جهوداً جبارة . وفتّح عصرُها ، فيها ، كلّ ملكاتها ، وفجر طاقاتها ، وأبانها على حقيقتها ـ سلبية كانت أم إيجابية ـ وتمكن من قيادها أكثر مما تمكنت من قيادته ، وفرض عليها حتميته التي تجلت في الخلاصة الواقعية لمآلاتها ومصائرها سواء تحققت أحلامها وانفتحت أشرعتها أم طارت مع بنات نعش وتمزقت الأشرعة : إنه التاريخ ـ وقد وضعت كل شخصية ثقلها فيه ، من أجل تحقيق مصالحها وأهدافها وحاولت أن تسيِّره وفق إرادتها لكنه ـ سار وفق حتميته المشروطة بالقوانين الموضوعية لتكوين المجتمع السوري في تلك المرحلة التاريخية

من خلال العلاقة الجدلية بين العامل الذاتي والعامل الموضوعي ، العلاقة التي لا تعي كي ترحم أحداً . ومن خلال هذه العلاقة التي انعكست فنياً في تصوير خصوبة نماذج الشخصيات الفنية المناضلة من أجل الحرية والوطنية وخير الشعب في التقدم الاجتماعي ،نبعت ملحمية رواية « مدارات الشرق » التي جعلت القارىء يعيش مع النماذج الفنية كشخصيات إنسانية حية متحركة ، زاهية وكابية ،فرحة وحزينة ، ثائرة وصابرة ، شاعرية وحساسة ، لكنها واعية قوية كالصوان في واقعيتها ،وعلية كالنجوم في أحلامها ،وعزيزة في صمودها ،وأليفة في عشقها ،وحاتمية في كرمها ،وحلوة في نزواتها ،ويتيمة في موتها الوطني الجميل ، وواعدة في هولها .

* المصادر التاريخية للبحث *

- أحمد عزت ، عبد الكريم ، 1951 - التقسيم الإداري لسورية في العهد العثماني . حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس - القاهرة .
- أرسلان ، شكيب ، 1969 - مذكرات الأمير شكيب أرسلان . دار الطليعة - بيروت .
- الأرسوزي ، زكي ، 1974 - المؤلفات الكاملة . وزارة الثقافة - دمشق .
- الأرمنازي ، نجيب ، 1973 - سورية من الاحتلال حتى الجلاء . ط2 ، دار الكتاب الجديد - بيروت .
- أكاديمية العلوم السوفيتية ، 1975 - تاريخ الأقطار العربية المعاصر . دار التقدم - موسكو .
- الأممية الشيوعية والثورة العربية ، 1931 . تر : إلياس مرقص ، 1970 - بيروت .
- بقلم مسلم ، 1923 - سورية للسوريين ، كتاب اجتماعي ، تاريخي - بيروت .
- بوندرايفسكي ، 1975 - سياستان إزاء العالم العربي . تر : خيري الضامن ، دار التقدم - موسكو .
- الحكيم ، يوسف ، 1983 - سورية والانتداب الفرنسي . دار النهار - بيروت .
- حمامي ، حسن ، 1971 - الأزياء الشعبية وتقاليدها في سورية . وزارة الثقافة - دمشق .
- حنا ، عبد الله ، 1987 - من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان « النصف الأول من القرن العشرين » . ط1 ، دار الأهالي - دمشق . 1972 - الحركة العمالية في سورية ولبنان 1900 - 1945 . ط1 ، دار دمشق - دمشق . مع آخرين 1988 - تاريخ الفلاحين . دار البعث - دمشق .

ـ خيّر ، صفوح ، 1966 ـ غوطة دمشق . وزارة الثقافة ـ دمشق .
ـ دكروب ، محمد ، 1984 ـ جذور السنديانة الحمراء . ط2 ، دار الفارابي ، بيروت .
ـ رزق سلوم ، رفيق ، 1912 ـ حياة البلاد في علم الاقتصاد . حمص .
ـ رضا ، علي ، 1979 ـ قصة الكفاح الوطني في سورية (1918 ـ 1946) . المطبعة الحديثة ـ حلب . 1983 ـ سورية من الاحتلال حتى الوحدة المباركة . مطبعة شيك بلوك ـ حلب .
ـ السباعي ، بدر الدين ، 1967 ـ أضواء على الرأسمال الأجنبي في سورية . دار الجماهير ـ دمشق .
ـ سعيد ، أمين ، لا تاريخ ـ الثورة العربية الكبرى . ط1 ، عيسى البابي وشركاه ـ مصر .
ـ السعيد ، رفعت ، 1972 ـ تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر 1900 ، 1925 . دار الطليعة ـ بيروت .
ـ السفرجلاني ، محي الدين ، 1961 ـ تاريخ الثورة السورية . دار اليقظة العربية ـ دمشق .
ـ الشريف ، ماهر ، 1989 ـ الكومنترن والقضايا العربية . مجلة النهج ، ع : 25 ـ قبرص .
ـ العروي ، عبد الله ، 1983 ـ العرب والفكر التاريخي . المركز الثقافي العربي بالمغرب ـ الدار البيضاء .
ـ العطار ، نادر ، 1962 ـ تاريخ سورية في العصور الحديثة . بيروت .
ـ العظم ، خالد ، 1967 ـ مذكرات خالد العظم . منشورات الدار المتحدة ـ بيروت .
ـ عمارة ، محمد ، 1981 ـ دراسات في الوعي التاريخي . دار الوحدة ـ بيروت .
ـ العمري ، محمد طاهر ، 1345 هـ ـ تاريخ مقدرات العراق السياسية . بغداد .

- العودات ، هيثم ، 1976 - الانتفاضة العاميّة الفلاحية في جبل العرب . مطبعة الحجاز - دمئق .
- قدري ، أحمد ، 1965 - مذكراتي عن الثورة العربية . دمشق .
- لوتسكي ، لا تاريخ - تاريخ الأقطار العربية الحديث . تر : عفيفة القباني ، دار التقدم - موسكو .
- ليفين ، ز ، ل ، 1978 - الفكر الاجتماعي والسياسي في لبنان وسورية ومصر . تر : دار التقدم -موسكو .
- لينين ، ف ، أ ، 1975 - المختارات في عشر مجلدات . تر : الياس شاهين ، مجلد2 ، ط1 ، دار التقدم - موسكو .
- ماركس ، انجلز ، 1987 - بيان الحزب الشيوعي - تر : السياسي شاهين ، دار التقدم - موسكو .
- المؤتمر الأول لشعوب الشرق ، 1972 - تر : فؤاد طرابلسي - دار الطليعة - بيروت .
- مجموعة من المؤلفين السوفييت ، 1975 - تاريخ الأقطار العربية المعاصر . دار التقدم - موسكو .
- مشابك ، منير ، 1958 - 1959 - العادات والتقاليد في جبل العرب . دمشق .
- موسى ، سليمان ، 1970 - الحركة العربية 1908 - 1924 . دار النهار - بيروت .
- نعيسة ، يوسف جميل ، 1986 - مجتمع مدينة دمشق . ط1 ، دار طلاس - دمشق .
- يزبك ، يوسف ابراهيم ، 1974 - حكاية أول أيار في العالم وفي لبنان ، ذكريات وتاريخ ونصوص . دار الفارابي - بيروت .

المراجع

- ابن ذريل ، عدنان ، 1973 ـ **الرواية العربية السورية ـ دراسة نفسية** ، دار الآداب والعلوم ـ دمشق .

- ألبيريس ، ر . م ، 1982 ـ **تاريخ الرواية الحديثة** . تر : جورج سالم ، ط2 ،منشورات عويدات ـ بيروت ـ باريس .

- الكسندر وفا ، ل . ب ، 1976 ـ **غوركي وقضايا المنهج التاريخي في أدب الواقعية الاشتراكية في دراسات في الأدب والمسرح** . تر: نزار عيون السود . وزارة الثقافة ـ دمشق .

- باختين ، ميخائيل ، 1988 ـ **الكلمة في الرواية** . تر : يوسف حلاق ، وزارة الثقافة ـ دمشق .

- بارت ، رولان ، 1988 ـ **النقد البنيوي للحكاية** ، تر : أنطون أبو زيد . ط1 ، منشورات عويدات بيروت ـ باريس .

- برذرستون ، غوردون ، 1984 ـ **نشأة الرواية في أمريكا اللاتينية** . تر : سميرة بريك . وزارة الثقافة ـ دمشق .

- بليخانوف ، غ . ف ، 1977 ـ **الفن والتصوير المادي للتاريخ** .تر : جورج طرابيشي . دار الطليعة ـ بيروت .

1983 ـ **الفن والحياة الاجتماعية** . تر : الياس شاهين ، دار التقدم ـ موسكو .

- بوتور ، ميشيل ، 1982 ـ **بحوث في الرواية الجديدة** . تر : فريد انطونيوس ، ط2 . منشورات عويدات ، بيروت باريس .

- بيتروف ، س ، 1983 ـ **الواقعية النقدية** . تر : شوكت يوسف ، منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق .

- تروتسكي ، ل . د ، 1975 ـ **الأدب والثورة** . تر : جورج طرابيشي ، دار الطليعة ـ بيروت .

- تشيرنيشفسكي ، ن . غ ، 1983 - علاقات الفن الجمالية بالواقع . تر : يوسف حلاق ، وزارة الثقافة - دمشق .
- الجابري ، محمد عابد ، 1985 - الخطاب العربي المعاصر . دار الطليعة - بيروت .
- جويد ، د . ، 1948 - مشائل فلسفة الفن المعاصرة . تر : سامي الدروبي ، دار الفكر العربي - القاهرة .
- جماعة من الأساتذة السوفييت ، 1978 - أسس علم الجمال الماركسي - اللينيني ، تر : فؤاد المرعي ويوسف حلاق . جزآن . دار الجماهير العربية - دمشق ، ودار الفارابي - بيروت . 1976 - الواقعية الاشتراكية في الأدب والفن ، تر : محمد مستجير مصطفى ، دار الثقافة - القاهرة .
1979 - موجز تاريخ النظريات الجمالية . تر : باسم الشعار ، دار الفارابي - بيروت .
1980 - موجز تاريخ الفلسفة . تر : توفيف ابراهيم سلوم ، ط1 ، دار الجماهير ودار الفارابي دمشق - بيروت .
1982 - علم الجمال البرجوازي المعاصر . تر : فؤاد المرعي ، دار الفجر - حلب .
- لاتا ، المادية الديالكتيكية . تر : المرعي ، السباعي ، الجاموس . دار الجماهير - دمشق .
- الحميدي ، أحمد جاسم ، 1987 - البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيف . دار الأهالي ، ط1 - دمشق .
- خرابتشنكو ، م ، 1980 - ذات الكاتب الإبداعية ، وتطور الأدب . تر . نوفل نيوف ، وعاطف أبو حمرة . وزارة الثقافة دمشق .
1983 - الإبداع الفني والواقع الإنساني . تر : شوكت يوسف . وزارة الثقافة - دمشق .

ـ الخطيب ،حسام ، 1973 ـ سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية . ط1 ـ معهد البحوث العربية ـالقاهرة .
1975 ـ الرواية السورية في مرحلة النهوض . معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة .
1983 ـروايات تحت المجهر منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق .
ـ الخطيب محمد كامل ، 1973 ـ المغامرة المعقدة . وزارة الثقافة ـ دمشق .
1979 ـ السهم والدائرة . ط1 ، دار الفارابي ، بيروت .
1979 ـ عالم حنا مينة الروائي . (بالاشتراك مع عبد الرزاق عيد) . دار الآداب بيروت .
1981 ـ الرواية والواقع .ط1 ، دار الحداثة ـ بيروت .
1990 ـ تكوين الرواية العربية ـ اللغة ورواية العالم . وزارة الثقافة ـ دمشق .
ـ الدقاق ، عمر ، 1971 ـ فنون الأدب المعاصر في سورية . دار الشرق ـ حلب .
1979 ـ تاريخ الأدب الحديث في سورية . ط2 ، المطبوعات الجامعية ـ جامعة حلب .
1977 ـ الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث . دار الشرق ـ حلب .
ـ دكروب ، 1980 ـ الأدب الجديد والثورة . دار الفارابي ـ بيروت .
ـ ديتشيز ، دافيد ، 1987 ـ الأدب والمجتمع . تر : عارف حذيفة . وزارة الثقافة ـ دمشق .
ـ ريتشاردز ، 1973 ـ مبادىء النقد الأدبي ، تر : مصطفى بدوي ، المؤسسة العامة ـالقاهرة .
ـ ريديكر ، هورست ، 1977 ـ الانعكاس والفعل . تر : فؤاد المرعي . دار الجماهير الشعبية دمشق ودار الفارابي ـ بيروت .
ـ ريكاردو ، جان ، 1977 ـ قضايا الرواية الحديثة . تر : صياح الجهم ، وزارة الثقافة ـ دمشق .

- ستاروبنسكي ، جان ، 1976 ـ النقد والأدب . تر : بدر الدين القاسم ، مرا : أنطون مقدسي ، وزارة الثقافة ـ دمشق .

- سعيد ، خالدة ، 1979 ـ حركية الإبداع . ط1 ، دار العودة ـ بيروت .

- سليمان ، نبيل ، 1974 ـ الأدب والأيديولوجيا . (مع بوعلي ياسين) . دار ابن خلدون بيروت .

1982 ـ الرواية السورية . وزارة الثقافة ـ دمشق .

1983 ـ مساهمة في نقد النقد الأدبي . دار الطليعة ـ بيروت .

1985 ـ وعي الذات والعالم ـ دراسات في الرواية العربية . ط1 ، دار الحوار ـ اللاذقية .

- سماق ، فيصل ، 1979 ـ الواقعية في الرواية السورية . ط1 ، دار البعث ـ دمشق .

1984 ـ الرواية السورية ، نشأتها وتطورها ، مذاهبها . الإدارة السياسية ـ دمشق .

- سوتشكوف ، بوريس ، 1979 ـ المصائر التاريخية للواقعية . تر : محمد عيتاني وأكرم الرافعي . ط1 ، دار الحقيقة ـ بيروت .

- سويدان ، سامي ، 1986 ـ أبحاث في النص الروائي العربي . ط1 ، مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت .

- شكري ، غالي ، 1971 ـ الرواية العربية في رحلة العذاب . عالم الكتب ـ القاهرة .

1979 ـ الماركسية والأدب . ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت .

1981 ـ سوسيولوجيا النقد العربي الحديث . ط1 ، دار الطليعة ـ بيروت .

- صبحي ، محيي الدين ، 1970 ـ أبطال في الصيرورة : دراسات في الرواية العربية والمعربة . دار الطليعة ـ بيروت .

- صليبا ، جميل ، 1956 - 1957 - اتجاهات النقد الحديث في سورية . معهد الدراسات العربية العليا - القاهرة .
- طرابيشي ، جورج ، 1977 - شرق وغرب . دار الطليعة - بيروت .
1981 - رؤية المرأة في الرواية العربية . دار الطليعة - بيروت .
1985 - عقدة أوديب في الرواية العربية . دار الطليعة - بيروت .
- طه بدر ، عبد المحسن ، 1963 - تطور الرواية العربية في مصر 1870 - 1938 . القاهرة .
- طوسون ، جورج ، ودنيبروف ، فلاديمير ، 1974 - دراسات ماركسية في الشعر والرواية . تر: ميشال سليمان . ط1 ، دار القلم - بيروت .
- العالم ، محمود أمين ، 1985 - ثلاثية الرفض والهزيمة . ط1 ، دار المستقبل العربي القاهرة .
1981 - ملاحظات نظرية حول الخطاب الروائي في الرواية العربية بين الواقع والأيديولوجيا . ط1 ، دار الحوار - اللاذقية .
1981 - التاريخ والفن في ثلاث روايات مصرية - مجلة الآداب ع2 / 3 / 1980 .
1955 - في الثقافة المصرية . دار الفكر الجديد - القاهرة .
- العروي ، عبد الله ، 1970 - الايديولوجيا العربية المعاصرة . دار الحقيقة - بيروت .
1983 - العرب والفكر التاريخي . دار التنوير والمركز الثقافي العربي - المغرب .
- عطية ، أحمد محمد ، 1974 - الالتزام والثورة في الأدب العربي الحديث . دار العودة - بيروت .
1984 - البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة . وزارة الثقافة - دمشق .
- علاء الدين ، ماجد ، 1984 - الواقعية في الأدبين العربي والسوفيتي ، وزارة الثقافة دمشق .

- عمارة ، محمد ، 1981 - دراسات في الوعي التاريخي . دار الوحدة - بيروت .
- عيد ، عبد الرزاق ، 1988 - في سوسيولوجيا النص الروائي . ط1 ، الأهالي - دمشق .
1991 - الرواية والتاريخ . (مع جمال باروت) . ط1 ، دار الحوار - اللاذقية .
- العيد ، يمنى ، 1986 - الراوي الموقع الشكل - بحث في السرد الروائي . ط1 ، مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت .
- غارودي ، روجيه ، 1968 - واقعية بلا ضفاف . دار الكتاب العربي - القاهرة . تر : حليم طومسون .
- غوردون ، برذرستون ، 1984 - نشأة الرواية في أمريكا اللاتينية . تر : سيرة بريك . وزارة الثقافة - دمشق .
- غروموف ، 1975 - الواقعية الاشتراكية . تر : عدنان مدانات ، دار ابن خلدون ، بيروت .
- فريق من الباحثين السوفيت ، 1986 - الأدب والعلوم الإنساني . تر : يوسف حلاق . وزارة الثقافة - دمشق .
- فضل ، صلاح ، 1978 - منهج الواقعية في الإبداع الفني . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .
- فورستر ، أ . م ، 1960 - أركان الرواية . تر : كمال عين ، دار الكرنك - القاهرة .
- فيشر ، أرنست ، 1971 - ضرورة الفن . تر : أسعد حليم . الهيئة العامة للتأليف والنشر - القاهرة .
- الفيصل ، سمر روحي ، 1979 - ملامح في الرواية السورية . وزارة الثقافة - دمشق .
- 1983 - السجن السياسي في الرواية العربية . اتحاد الكتاب العرب - دمشق .
- كريستيان ، ر . ف ، 1983 - تولستوي - مقدمة نقدية . تر : عبد الحميد الحسن . وزارة الثقافة دمشق .

- الكيالي ، سامي ، 1968 - **الأدب العربي المعاصر في سورية** ،دار المعارف بمصر ، القاهرة .
- كيلي ف . م . وكوفالزون ، 1978 - **المادية التاريخية** . تر : أحمد داوود ، دار الجماهير- دمشق .
- لوفيفر ، هنري ، 1983 - **ما الحداثة** . تر : كاظم جهاد ،ط1 ، دار ابن رشد- بيروت .
- لوكاش ، جورج ، 1978 - **الرواية التاريخية** . تر : صالح جواد الكاظم ، ط1 ، دار الطليعة ، بيروت .
1982 - **التاريخ والوعي الطبقي** . تر : حنا الشاعر ، دار الأندلس - بيروت .
1972 -**دراسات في الواقعية** . تر : أمير اسكندر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة .
1971 - **معنى الواقعية المعاصرة** . تر : أمين السيوطي ، دار المعارف بمصر - القاهرة .
- مجموعة من الأساتذة السوفييت ، 1982 - **أسس علم الجمال الماركسي اللينيني** . تر : جلال الماشطة . ط1 ، دار التقدم ، موسكو .
- مجموعة من المؤلفين ، 1986 - **المعجم الفلسفي المختصر** .تر : توفيق سلوم ، دار التقدم موسكو .
- مجموعة من المؤلفين العرب ، 1986 - **دراسات في القصة العربية (وقائع ندوة مكناس)** مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت .
- المحمد ، فائق ، 1978 - **دراسات في الرواية** . دار الشبيبة - دمشق .
- المرعي ، فؤاد ، 1982 - **في تاريخ الأدب الحديث** . ط1 ، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية - حلب .
1981 - **المدخل إلى الآداب الأوربية** . جامعة حلب - حلب .
1982 - **نظرية الأدب** ، جامعة حلب - حلب .

- مروة ، حسين ، 1984 - دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي . مؤسسة الأبحاث العربية ، ط3 ، بيروت .
- مصطفى ، شاكر ، 1957 - 1958 - محاضرات عن القصة في سورية حتى الحرب العالمية الثانية . معهد الدراسات العليا - القاهرة .
- معجم الشيوعية العالمية ، 1985 - دار التقدم - موسكو .
- الموسوي ، محمد أحمد جاسم ، 1975 - الموقف الثوري في الرواية العربية المعاصرة . وزارة الإعلام - بغداد .
- نجم ، محمد يوسف ، 1966 - فن القصة . طه ، دار الثقافة - بيروت .
- نن ، أنابيس ، 1983 - رواية المستقبل . تر : محمدو منقذ الهاشمي ، وزارة الثقافة ، دمشق .
- نينا ، غور فنكل ، 1954 - مكسيم غوركي . تر : بهيج شعبان . دار بيروت - بيروت .
- هالبرن ، جون ، 1981 - نظرية الرواية . تر : محيي الدين صبحي ، وزارة الثقافة دمشق .
- همفري ، روبرت ، 1974 - تيار الوعي في الرواية الحديثة . تر : محمود الربيعي ، ط2 ، دار المعارف - القاهرة .
- ويليك ، ، رينيه ، وارين أوستن - 1985 - نظرة الأدب . تر : محيي الدين صبحي ، مرا : حسام الخطيب ، ط3 ، المؤسسة العربية للنشر - بيروت .
- ويمزات بروكس ، 1975 - النقد الأدبي الحديث ، تر : محي الدين صبحي وحسام الخطيب ، وزارة الثقافة - دمشق .

محتوى البحث

مقدّمة 5

الأحداث التاريخية : 8
أ ـ الفنية في الاختيار 8
ب ـ المعالجة الفنية للأحداث التاريخية : 9
1 ـ الحرب العالمية الأولى وهزيمة الأتراك 9
2 ، اتفاقية سايكس بيكو ، ووعد بلفور ، والثورة العربية ، وعهد حكومة فيصل في دمشق ، والاحتلال الفرنسي لسورية 19
ـ سايكس بيكو ووعد بلفور والثورة العربية . 19
ـ عهد حكومة فيصل في دمشق 39
ـ معركة مرجعين ومظاهرات الجوع .
ـ الاحتلال الفرنسي لسورية 45
ـ احتلال الساحل السوري وتقسيم البلاد 45
ـ الانسحاب الانكليزي من سورية . 50
ـ احتلال الفرنسيين لسورية كاملة

3 ـ مقاومة الشعب السوري للاحتلال الفرنسي 54
ـ المقاومة الوطنية ضد الفرنسيين والانكليز قبل ميسلون 54
ـ النضال الوطني التحرري 61
ـ عزيز اللباد 62
ـ العم حاتم أبو راسين 72
ـ هولو التكلي 76
ـ ياسين الحلو 84
ـ راغب الناصح 89

- فياض العقدة 91
- عمر التكلي 92
- حمادي الحسون 95
- الباشا شكيم 98
- سليم أفندي البسمة 99
- هشام الساجي 101

المقبوسات والأمثال والأغاني 107

1 ـ المقبوسات 107

2 ـ الأمثال

3 ـ الأغاني 112

مراجع رواية « مدارات الشرق » 119

المراجع والمصادر 127

من منشوراتنا

* أرخبيل الرعب ـ ظافر ناجي .
* القيامة . . الآن ـ ابراهيم درغوثي .
* الرواية العربية والحداثة ـ محمد الباردي .
* الإبداع الروائي اليوم ـ مجموعة من الكتّاب العرب والفرنسيين .
* تقنيات الكتابة ـ مجموعة من المؤلفين .
* الخنفساء ـ لورانس .
* ما وراء الأوهام ـ اريك فروم .
* بناء القدرات الدماغية ـ آرثر وروث وينتر .
* سحر الرمز ـ مجموعة مؤلفين .
* مدارات الشرق ـ نبيل سليمان .
* أزمة المرأة في المجتمع الذكوري العربي ـ بو علي ياسين .
* نحن والفير ـ بو علي ياسين .

دار الحوار للنشر والتوزيع ـ سورية ـ اللاذقية

ص ـ ب 1018ـ هاتف 422339

الغلاف : ناظم حمدان